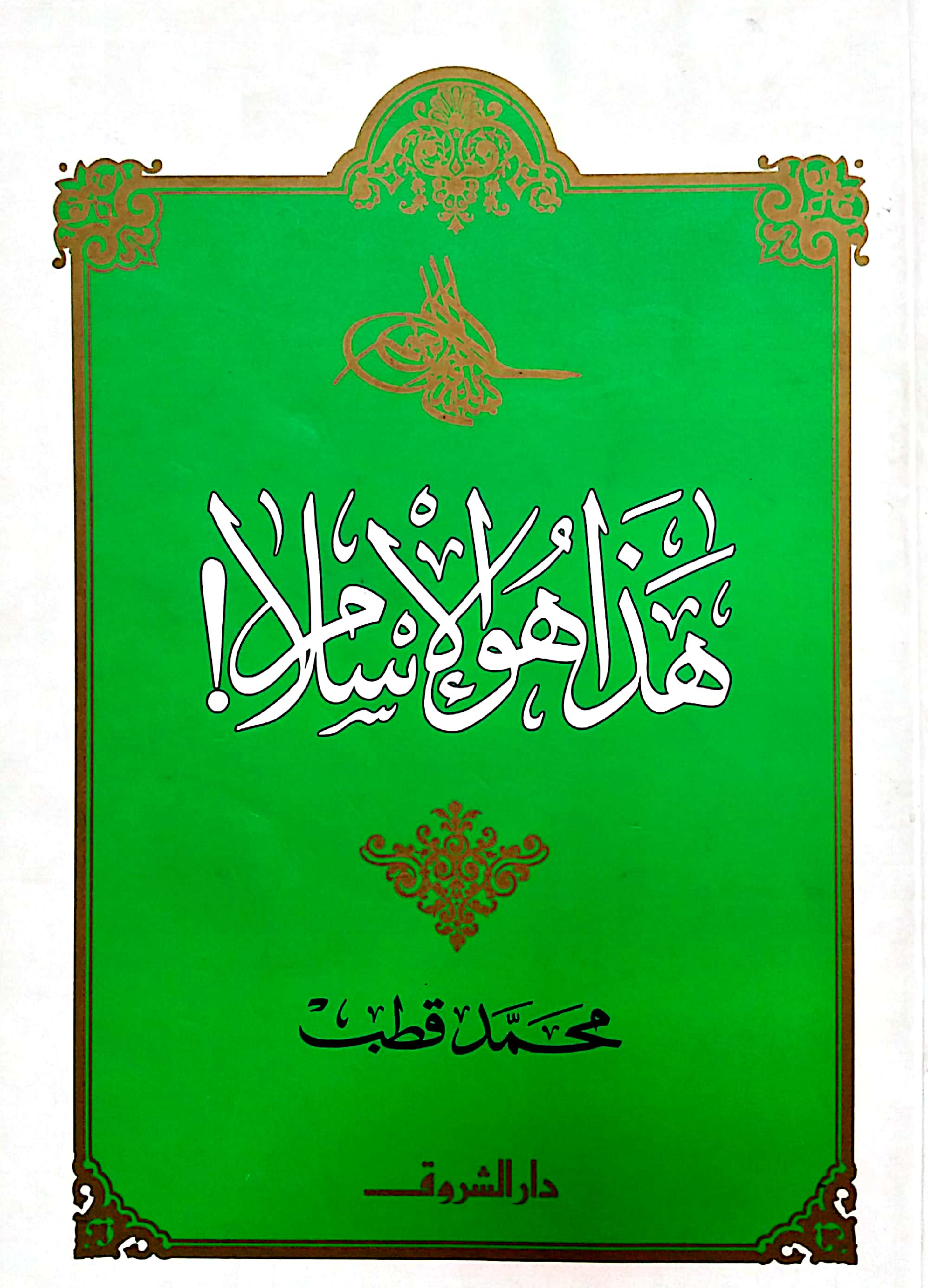


هذا هو الإسلام!
محمد قطب
دار الشروق

هذا هو الإسلام!

الطبعـة الأولى ٢٠٠٨

رقم الإيداع ١٠٥٧٧/ ٢٠٠٨
ISBN 978-977-09-2408-2

٨ شارع سيبويه المصرى
مدينة نصر - القاهرة - مصر
تليفون : ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٢٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
email: dar@shorouk.com
www.shorouk.com

محمد قطب

هذا هو الإسلام!

دار الشروق



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

المحتـــويات

مقـــدمـة ٩

الثابت والمتـغير ١٣

العدل الـسياسى فـى الإسلام ٢٩

العدل الاقـتصـادى فى الإسلام ٤٣

العدل الاجـتمـاعى فى الإسلام ٥٣

فيـما بين الجنسين ٦١

الجـريمة والعقـاب فى المنهج الربانى ٧٠

هذ هـو الإســلام ٨٠

مقـــدمـــة

حين ينادى الدعاة الإسلاميون بأن الإسلام هو الحل، يتشكك كثير من الناس!

فأما العلمانيون وأضرابهم فموقفهم واضح، فهم يكرهون أن يكون الإسلام سبيلا إلى الإصلاح، ولا يطيقون من أحد أن ينادى بذلك! فالدين فى نظرهم لا يجوز أن يدخل فى أى أمر من أمور الحياة الدنيا، وحسبه - لمن أراد - أن يكون علاقة بين العبد والرب، محلها القلب، ولا شأن لها بواقع الحياة، وأن دخول الدين فى أمور الحياة الدنيا هو الفساد الأعظم، الذى ينبع منه كل الفساد!

وهؤلاء موقفهم واضح ومعروف، وسببه كذلك معروف. فقد قرروا منذ البدء أن يتبعوا الغرب فى كل ما يقوله، على أساس أن الغرب هو الحضارة، وهو التقدم، وهو النموذج الذى ينبغى أن يحتذى. وقد قال الغرب إن الدين كان - فى تاريخه - هو مصدر التأخر، ومصدر الظلام، وأن الغرب لم يتقدم ولم يتحضر إلا بعد أن نبذ الدين، أو على الأقل حجّمه فى مكانه الذى لا ينبغى أن يتجاوزه، فأصبح - لمن أراد - علاقة بين العبد والرب، محلها القلب، ولا شأن لها بواقع الحياة.

هؤلاء لن نناقشهم فى هذا الكتاب، لأنه لا جدوى من مناقشتهم، وإن كنا ندعو الله لهم أن يهديهم إلى الحق، وأن يعودوا فيبصروا بعيونهم الخاصة التى منحهم الله إياها ليبصروا بها، لا ليستعيروا عيون غيرهم فتختل الرؤية أمامهم.

ولكنا نتحدث هنا إلى آخرين قد لا يكونون من أعداء الإسلام، وقد لا يكرهون

أن يروه حاكما فى الأرض، ولكنهم - فى دخيلة أنفسهم - يتشككون فى أن يستطيع الإسلام بالفعل أن يحل مشاكل الحياة المعاصرة، التى تعقدت تعقدا شديدا، وتزداد كل يوم تعقدا، وصار بينها وبين الحياة الأولى التى نزل فيها الإسلام، وحل جميع مشاكلها، وارتقى بها إلى مستوى مثالى، أمد بعيد، بحيث يصعب - فى نظرهم - تخيل أن تكون ذات الحلول التى كانت ناجحة نجاحا فائقا فى وقتها، صالحة لحل مشكلات الواقع المعقد المتشابك الذى نعيشه اليوم.

هؤلاء - مع افتراض حسن نيتهم، وأنهم لا يعادون الإسلام ولا يكرهونه - يرجع سبب تشككهم - سواء أبدوه أو أخفوه - إلى أنهم ينظرون إلى الإسلام فى صورته التى آل إليها فى الحقبة الأخيرة على يد الأجيال المتأخرة من المسلمين، فيرون أنه - بهذه الصورة - عاجز عن أن يحل أى مشكلة من مشكلات الحاضر، وأن الحاضر - بتعقيداته - أوسع كثيرا من أن يستطيع الإسلام أن يحل مشاكله، فلابد لنا - إذا أردنا المحافظة عليه - أن نضيف إليه من هنا ومن هناك، ليستوعب الحاضر أولا، ثم يحاول حل مشكلاته!

وقد قلنا فى غير هذا المكان - ونكرر هنا - أن الإسلام الذى نقول إنه هو الحل، هو الإسلام كما أنزله الله فى كتابه المنزل، وفى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، لا كما مارسته الأجيال التى انحرفت عنه، فهذا الإسلام - كما أنزله الله - حجة على الأمة، وليست الأمة - فى أى جيل من أجيالها - حجة عليه، وبخاصة تلك الأجيال المتأخرة التى ظلت تبتعد شيئًا فشيئًا عن حقيقة الإسلام حتى كادت تخرج منه، وهى تحسب أنها ما تزال على الجادة. وأن الصورة التطبيقية للإسلام، التى نعتبرها مقياسا واقعيا هى فترة صدر الإسلام، فترة الرسول صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين من بعده، التى طبقت فيها كل مبادئ الإسلام وقيمه ومعاييره، وأننا حين نتكلم عن الإسلام كما أنزله الله لا نتكلم عن صورة مثالية غير قابلة للتطبيق فى عالم الواقع، ما دامت قد طبقت بالفعل، وطبقها بشر، لا هم ملائكة ولا هم خلق آخر غير البشر، وطبقوها ببشريتهم كاملة، بما فى البشر من نقاط قوة ومن نقاط ضعف، وقابلية للارتفاع وقابلية للهبوط، بل إننا لا نكتفى بالرجوع إلى فترة

الرسول صلى الله عليه وسلم وفترة الخلفاء الراشدين من بعده، بل نأخذ فى حسابنا القرون المفضلة جميعا التى قال عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خير القرون قرنى ثم الذى يليه، ثم الذى يليه» (رواه الشيخان).

وحقيقة أن أمورا كثيرة فى مظاهر الحياة المختلفة قد تغيرت كثيرا عن الصورة التى كان عليها الناس فى الأجيال الأولى التى شهدت مولد الإسلام، ولكنْ هنا قضية مبدئية (سنعالجها بشىء من التفصيل فى فصل قادم) هى: أيهما يحكم الآخر؟ الثابت يحكم المتغير، أم المتغير يحكم الثابت؟ وما الذى يتغير فى الحقيقة: الجوهر أم الصورة؟

وإن تعجب فعجب لمن يقول إن الإسلام لا يصلح لحل مشاكل الحياة لأنه يشترط نظافة الناس من الباطن لا من الظاهر فحسب، وهذا مطلب عسير، أما الديمقراطية فلا تشترط ذلك، ويطبقها الصالح والطالح، فهى أيسر منالا، وأقدر على حل مشاكل الناس!

وإن تعجب فعجب مرة أخرى ممن يقول لك إن الإسلام لا يصلح لحل مشاكل الناس لأنه يعتمد على الوجدان الفردى الذى لا ضابط له، أما الديمقراطية فتعمل عن طريق «مؤسسات» ولذلك تملك فاعلية لا يملكها الوجدان الفردى! كأنما حياة المسلمين كانت خالية من المؤسسات! وكأنما أهل الحل والعقد لم يكونوا مؤسسة! وكأنما ديوان الحسبة لم يكن مؤسسة! وكأنما ديوان المظالم لم يكن مؤسسة! وكأنما بيت المال لم يكن مؤسسة! وكأنما كانت هذه كلها وجدانات طائرة فى الهواء!

* * *

وبعد، فليس من هدفنا فى هذا الكتاب أن نضع حلولا تفصيلية للمشاكل التى يعيشها الناس فى واقعهم المعاصر، فهذا جهد لا يقوم به فرد، إنما تقوم به مجموعة من الفقهاء والباحثين فى جميع التخصصات، تجتهد لاستنباط الأحكام الموائمة للحاضر من ثوابت الكتاب والسنة، وتعدّها للتنفيذ. وإنما حسبنا هنا أن نشير - مجرد إشارة - إلى المفاهيم الرئيسية للإسلام، فنتكلم - فى إيجاز - عن العدل

السياسى فى الإسلام، والعدل الاقتصادى فى الإسلام، والعدل الاجتماعى فى الإسلام، والعدل بين الرجل والمرأة فى الإسلام، ونظرة الإسلام إلى الجريمة والعقاب، فضلا عن إشارات أخرى يقتضيها المقام.

إنما نحن هنا ندعو لأمرين.

ندعو الأمة أن تستيقظ من غفوتها، وتعزم العزمة الصادقة أن تعود إلى الله، لأنه لا منقذ لها مما هى فيه إلا العودة الصادقة إلى الله.

وندعوها لتتعرف - من جديد - على دينها، لتجد فيه ما يقيم حياة الناس بالقسط فى جميع الأمور كما أخبر الله فى كتابه المنزل، مع اليقين بأن كلام الله هو الحق، وأن ما قرره الله فى كتابه هو الحق، وأن السبيل الوحيد للنجاة فى الدنيا والآخرة هو ما قرره الله.

أما اليقظة المطلوبة - وبوادرها قائمة بعون الله - فنشير بشأنها هنا إشارة سريعة. إن الله لا يترك هذه الأمة تضل حتى تخرج من رحمته، وإنما يبعث دائما من يجدد لها دينها كلما غفلت عنه. ويبدو لنا - ولا نتألى على الله - أنه وكل هذه المهمة فى واقعنا المعاصر إلى أعداء الأمة، يعملون - بالحماقات التى يرتكبونها - على إيقاظ الأمة، وبعثها من جديد لتتعرف على دينها من جديد، فيكون لها - بفضل الله - ميلاد جديد، يملأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا من قبل، كما قال الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام.

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

محمد قطب

الثابت والمتغير

تعرض لبعض الناس هذه الشبهة : كيف يتأتى للشريعة التى نزلت قبل أربعة عشر قرنا من الزمان، فى ظروف تختلف تمام الاختلاف عن عالمنا المعاصر، أن تحكم واقعنا الذى نعيشه اليوم، وقد تغيرت الظروف وتغيرت الأحوال، ولا يكاد يوجد أى تشابه بين واقع اليوم وواقع الأمس الذى أنزلت هذه الشريعة فيه؟

وإذا سلمنا بأن هذه الشريعة كانت - فى وقتها - نقلة نوعية ضخمة، نقلت الإنسان من جاهليته التى كان يعيش فيها إلى قيم ومبادئ ونظام لم تكن تخطر فى بال أحد فى ذلك الحين، ورفعت الإنسان من وهدته التى كان جاثما فيها إلى آفاق أعلى بكثير مما تملكه البيئة، وتملكه النظم والثقافات السائدة يومئذ. . إذا سلمنا بهذا كله فهل تظل لتلك الشريعة رفعتها وتقدميتها فى عالم اليوم الذى خطا خطوات جبارة فى سبيل التقدم والارتقاء والحضارة، أم تصبح رجعية وعاجزة بالنسبة إليه؟ وهل يظل صالحا لإنسان اليوم ما كان صالحا لإنسان الجزيرة العربية قبل أربعة عشر قرنا؟

ولأهمية هذه الشبهة فى تفكير بعض الناس - أو كثير منهم - أفردنا لها هذا الفصل من الكتاب لنبين حقيقة الأمر فى هذه القضية من زاويتين: زاوية الوحى المنزل من عند الله، وزاوية «الإنسان» وتحولاته خلال التاريخ.

فأما من جهة الوحى فالذين تعرض لهم هذه الشبهة ينسون - أو يغفلون - أن الله لم ينزل هذا الدين لسكان الجزيرة العربية خاصة - وإن كان قد اختار الجزيرة العربية لتكون منطلقا للدعوة، والله أعلم حيث يجعل رسالته - إنما أنزله للبشرية كافة،

فمنذ الأيام الأولى، والمؤمنون قلة مستضعفة لا تزيد على أفراد، والدعوة فى مهدها تقابل بأشد ألوان الصد والاضطهاد، كان الوحى المنزل من عند الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرر عالمية الدعوة، وأنه بعث محمدا صلى الله عليه وسلم إلى البشرية كافة: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (التكوير: ٢٧) ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (القلم: ٥٢) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ (سبأ: ٢٨) ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٨) وكلها آيات مكية فى سور مكية، نزلت قبل تمكن الدعوة فى الأرض، وقيام الدولة الإسلامية فى المدينة.

وينسون - أو يغفلون - من جهة أخرى أن الله أنزل هذا الدين ليحكم حياة الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فهو لم يحدد زمنا معينا يكون الإنسان بعده غير ملزم بهذا الدين، إنما أخبر سبحانه وتعالى عن أمرين لكل منهما دلالته: الأولى هى اكتمال الدين: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (المائدة: من آية ٣) والثانية هى ختم النبوة: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤٠) فالدين اكتمل، فلا زيادة عليه ولا إضافة، والنبوة ختمت، فلا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم، أى أن الأمر استقر - فى تقدير الله - على صورته التى أنزل بها إلى نهاية الحياة على الأرض.

كما أن هذا الفريق من الناس ينفى - وإن لم يقصد، وإن لم يَعِ - صفتين من صفات الله جل وعلا: صفة العلم وصفة الحكمة. فكأنه لم يكن يعلم - سبحانه وتعالى - يوم أنزل هذا الدين أن تحولات ضخمة ستقع فى عالم البشر! وكأنه - سبحانه وتعالى - لم يكن حكيما حين ألزم الناس بشىء ستزول الحكمة منه بعد حين! بينما الله عليم حكيم كما وصف نفسه فى كتابه المنزل، وكما يؤمن المؤمنون بهذا الدين.

هذا من جهة الوحى الربانى وهو واضح الدلالة.

أما من جهة «الإنسان» فالأمر ربما يحتاج إلى شىء من البيان.

لقد حدثت تحولات ضخمة فى حياة الإنسان منذ بدأ حياته على هذه الأرض إلى يومنا الحاضر، بحيث يبدو للنظرة السريعة أن كل شىء فيه قد تغير، وأنه لا تكاد توجد صلة بين إنسان الأمس وإنسان اليوم!

ولكن عند التدقيق يتبين أن التحولات الضخمة كانت كلها فى «مظهر» حياته، لا فى «جوهر» النوازع التى تحرك الإنسان من داخله، وترسم له طريقه فى الحياة.

فمنذ العهود الأولى كان هناك نوعان من النفوس البشرية، كل منهما يشتمل على مشاعر غير مشاعر الآخر، ويسلك سلوكا مختلفًا عن الآخر:

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴾ (المائدة: ٢٧ ـ ٢٩).

فما الذى تغير فى عالم اليوم عما كان فى عالم الأمس، بل فى بداية عمر الإنسان من الأرض؟

أليس قائما اليوم كما كان قائما بالأمس من تدفعه نوازعه الشريرة أن يعتدى على غيره بغير حق؟ ويتمثل هذا فى أفراد وجماعات ودول تمارس الظلم على غيرها طمعا أو حسدا أو رغبة فى التسلط أو رغبة فى الاستيلاء على ما فى يد الآخرين بغير حق؟

فما الذى تغير؟!

وكان الإنسان الأول يتمنطق بقطعة من الجلد أو القماش فيأتى الشيطان فيغويه ليكشف سوءته، فصار الإنسان يتفنن فى صنع ملابسه فيزركشها ويجملها ويجعلها فنونا مختلفة، فيأتى الشيطان فيغويه بخلع ملابسه فى أماكن معينة وأوقات معينة، فتقع ذات الجريمة التى حدثت من قبل: **﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ**

يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون ﴾ (الأعراف : ٢٧).

فما الذى تغير؟!

ولنترك الشيطان وغواياته، ولنركز حديثنا عن الإنسان.

كان الإنسان يسكن فى الكهوف، وما تزال نقوشه على جدران بعض الكهوف شاهدا على هذه الحقبة من التاريخ، ثم «تحضر» الإنسان فبنى له مسكنا من القش وأغصان الشجر، أو من الطوب والحجر، أو اتخذ له خيمة تقيه الحر والبرد، ثم «تحضر» أكثر، فبنى البيوت الفاخرة والقصور وناطحات السحاب، وزود مسكنه بالماء والكهرباء والأدوات والآلات..

فما الذى تغير: رغبة السكن - فى جوهرها - أم الصورة التى حقق بها الإنسان رغبة السكن؟

وكان الإنسان يعتمد فى غذائه على الصيد وثمار الأشجار، وكان يأكل طعامه نيئا قبل أن يكتشف النار، ثم اكتشف الزراعة، فزرع أنواعا مختلفة من النبات استخدمها فى صنع غذائه، ثم «تحضر» فجعل صناعة الغذاء فنا، وصنع أدوات لهذا الفن من ملاعق وأشواك وسكاكين، وجعل للطعام تقاليد وآدابا مرعية عند تناوله.. فما الذى تغير: رغبة الطعام - فى جوهرها - أم الصورة التى حقق بها الإنسان رغبة الطعام؟

وكان الإنسان يستخدم فى صراعه مع أعدائه - من حيوان أو إنسان - أدوات بدائية تقتل أو تجرح أو تبعد العدو، ثم «تحضر» فصار يستخدم أدوات أشد فتكا كالرمح والسيف، ثم «تحضر» أكثر فأكثر فصنع «أسلحة الدمار الشامل» من قنابل ذرية ونووية وهيدروجينية وغازات سامة وقتل جماعى من بعيد بمدفع أو صاروخ ينطلق من الأرض أو البحر أو الجو.. فما الذى تغير؟ رغبة القتال - فى جوهرها - أم الأدوات التى يحقق بها الإنسان رغبة القتال؟

ورغبة القتال ذاتها، إما دفاعًا عن النفس أو عدوانا على الآخرين، ما الذى تغير

فى جوهرها؟ أم بقى الجوهر واحدًا خلال التاريخ وتغيرت الأدوات، ودخلت فى الأدوات أنواع جديدة من القهر، منها القهر السياسى، والقهر الاقتصادى، والقهر العلمى. . إلخ، بينما الدوافع لم تتغير من أول التاريخ إلى آخر التاريخ؟

وكان الإنسان ينتقل من مكان إلى مكان على قدميه، فاستأنس بعض الدواب فاستخدمها للركوب والحمل، ثم «تحضر» فاخترع السيارة ثم الطائرة ثم الصاروخ، وما يمكن أن يستحدث فى المستقبل من الأدوات، فما الذى تغير؟ رغبة التنقل - فى جوهرها - أم أدوات الانتقال؟ ثم - من جهة أخرى - هل هبطت عليه أدوات الانتقال التى استحدثها من خارج نفسه - من السماء مثلا - أم كانت كل منها رغبة فى نفسه وتصورا وخيالا ثم حققها واقعًا؟

وهكذا. . لو ذهبنا نتتبع كل ما حدث فى حياة الإنسان من تحولات فسنجد هذه الحقيقة تواجهنا فى كل مرة: الجوهر ثابت، والصورة متغيرة على الدوام.

صحيح أن الصورة المتغيرة على الدوام تحدث أنماطًا من السلوك الإنسانى متغيرة على الدوام. لكن هنا يبرز السؤال الذى ينبغى مواجهته بموضوعية كاملة: حين تتغير الصورة ويتغير معها السلوك، هل يؤدى السلوك المتغير وظيفة غير الوظيفة التى كان السلوك السابق يؤديها للإنسان؟ أم بقيت الوظيفة هى هى وتغير الأسلوب؟

هنا «عقدة» الموضوع كله، التى ينبغى أن ينبنى عليها التصور.

حين تضع نظامًا للإنسان ينظم حياته، هل يكون همك التعامل مع مكونات نفسه التى لا تتغير، أم مع المتغيرات التى تجدّ باستمرار، أم تضع فى حسابك الأمرين معًا؟ ثم - إذا وضعت الأمرين معًا فى حسابك - فكم درجة تعطيها للثوابت، وكم درجة تعطيها للمتغيرات التى لا تغير الجوهر؟

بعبارة أخرى: كيف تتصرف مع الثابت والمتغير فى حياة الإنسان؟

أما الإسلام - دين الله، دين الفطرة - فقد رسم للأمر منهجًا غاية فى الإحكام.

فأما الثوابت التى لا تتغير فى فطرة الإنسان فقد ركز الإسلام عليها تركيزاً شديداً لأنها قوام الحياة، وأنزل فيها تشريعات ثابتة ومفصلة، وأمر باتباعها كما هى بدون تغيير. وأما المتغيرات فقد أتاح فيها للعقل المؤمن أن يجتهد لاستنباط الأحكام الملائمة لها، ولكن بشروط تربطها بالثوابت: ألا تحل حراماً ولا تحرم حلالاً ولا تصادم مقاصد الشريعة. وبذلك لم تكن أمام العقل المؤمن مشكلة إزاء الثابت والمتغير فى أمور الحياة، ولم يشعر فى يوم من الأيام أنه بحاجة إلى تغيير الثوابت، أو فك الارتباط بين الثوابت والمتغيرات.

ولا مجال هنا للتفصيل، وإنما نختار بعض القضايا للتمثيل.

من أبرز الثوابت التى ثبتها الإسلام قضية «الدين» بمعنى عبادة الله وحده بلا شريك. ثبتها، وركز عليها تركيزاً شديداً، وجعلها محور الأمر كله.

ولم يكن ذلك اعتباطاً، حاش لله، وإنما لحكمة، فالله هو العليم الحكيم، ولا يصدر عنه سبحانه إلا كل أمر حكيم، وقد وصف الله الليلة التى أنزل فيها القرآن الكريم إلى السماء الدنيا بقوله تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ (٣) فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ** ﴾ (الدخان: ٣، ٤).

يستند ثبات الدين فى الكتاب المنزل إلى حقيقة أزلية أبدية هى ألوهية الله وحده بلا شريك، كما يستند إلى حقيقة بشرية، هى نزعة العبادة المركوزة فى الكيان البشرى، وهى نزعة أودعها الله فى هذا الكيان ليعرف البشر ربهم ويعبدوه: ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا** ﴾ (الأعراف: ١٧٢).

ومقتضى الحقيقتين أن يعبد الإنسان ربه بلا شريك، لأنه وحده المستحق للعبادة، بمقتضى تفرده ـ سبحانه ـ فى ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته.

ولكن الله ـ لحكمة يريدها ـ لم يشأ أن يقهر الإنسان على العبادة كالقهر الواقع على السموات والأرض، وإنما جعل له وعياً وإرادة وحرية، وكلفه أن يعبد ربه عبادة واعية مبنية على تفكر وتدبر واقتناع. وهنا افترق البشر فريقين: فريق

استقامت فطرته، فتفكر وتدبر، فرأى ـ بالأدوات التى أتاحها له الله ليتفكر ويتدبر: السمع والبصر والفؤاد ـ فأيقن أنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فاستجاب لأمر الله: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ (النساء: ٣٦). واطمأن قلبه بذكر الله: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (الرعد: ٢٨). وفريق انحرفت فطرته، فآمن بغير الله، معه أو من دونه، فأصبح الناس كما أخبر رب العالمين: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ (التغابن: ٢) وأصبحت العبادة عبادتين: إما عبادة الله وإما عبادة الشيطان: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ (يس: ٦٠، ٦١) ونسبت عبادة غير الله إلى الشيطان لأنه هو الذى يدعو إليها ويزينها فى قلوب المشركين.

لكن الذى نريد التأكيد عليه هنا أن انحراف الفريق الذى انحرف لم يكن فى نزعة العبادة من حيث هى، فالإنسان عابد بطبعه، لا يستطيع أن يكون غير ذلك. إنما وقع الانحراف فى التوجه، فبدلا من التوجه إلى الإله الحق، الذى تشهد السموات والأرض بألوهيته، وتفرده بالألوهية، توجه ـ بنزعة العبادة المركوزة في كيانه ـ إلى معبودات أخرى يشركها مع الله، أو يعبدها من دون الله.

لا يوجد إنسان لا يعبد! ففى فطرته أن يعبد! إنما يفترق إنسان عن إنسان لا بأن أحدهما يعبد والآخر لا يعبد، وإنما بأن أحدهما يعبد الله الحق والآخر يعبد غير الله.

وهذه نقطة مهمة يحسن إبرازها والتأكيد عليها لأن الجاهلية المعاصرة تنفى وجود نزعة العبادة فى كيان الإنسان (وسنعود إلى هذه النقطة بعد قليل) وتستند فى نفيها إلى واقعها الذى تعيشه اليوم وتزعم فيه أن من البشر من لا يعبد شيئًا على الإطلاق، وتبنى على ذلك أن نزعة العبادة ليست أصيلة فى الكيان البشرى، إنما نشأت من ظروف تاريخية معينة لم يعد لها اليوم وجود!

هذا الوهم ـ أو هذه المغالطة ـ لم يغفل ذكرها كتاب الله المنزل. فالذى يزعم أنه

لا يعبد شيئًا على الإطلاق، هو عابد هواه الذى قال الله عنه فى محكم التنزيل: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ (الجاثية: ٢٣) إنه عابد.. ولكنه جعل من نفسه إلهًا معبودًا بدلاً من الله.

الدين إذن - بمعنى العبادة لله الحق - من الثوابت التى لا يطرأ عليها التغيير، لأنها تستند إلى حقائق لا مجال فيها للتغيير، سواء ألوهية الله سبحانه وتعالى وتفرده بالألوهية، أو توجه الفطرة السليمة إلى عبادة الإله الحق.

وكتاب الله المنزل كله دعوة إلى «هذا الدين».

فهو ابتداء تعريف بالله، ثم دعوة لعبادة الله، ثم بيان بالطريقة التى تتحقق بها العبادة الصحيحة لله.

تعريف بالله: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (الحشر: ٢٢-٢٤).

ودعوة لعبادة الله وحده: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ (النساء: ٣٦)، ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ (الزمر: ٢، ٣).

وبيان بالطريقة التى تتحقق بها العبادة الصحيحة لله:

١ - الإيمان الجازم بتفرد الله سبحانه وتعالى فى ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته.

٢ - الإيمان الجازم بما أخبر عنه سبحانه وتعالى من البعث والحساب والجنة والنار.

٣ - توجيه كل شعائر التعبد من صلاة وصيام وزكاة وحج وخوف ورجاء واستعانة واستغاثة لله وحده بلا شريك.

٤ ـ تحكيم شريعته وحدها دون غيرها من الشرائع.

٥ ـ عمارة الأرض بمقتضى المنهج الربانى، أى الالتزام فى عمارتها بالحلال الذى أحله الله، واجتناب ما حرم الله.

وثبت الإسلام «الدين» بهذا المعنى، وجعله محور الارتكاز الذى يدور كل شىء حوله، لأمرين اثنين فى آن واحد.

الأمر الأول أن هذا حق الله على عباده، كما بين الرسول صلى الله عليه وسلم: «يا معاذ هل تدرى ما حق الله على العباد... أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا» (رواه البخارى).

والثانى أنه بهذا وحده تصلح حياة الإنسان فى الدنيا والآخرة.

أما فى الدنيا فإنه إن لم يعبد الله الحق عبد من دونه آلهة زائفة لا ألوهية لها فى الحقيقة، فصار كما قال الله: ﴿ **يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُ وَمَا لا يَنفَعُهُ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ** ﴾ (الحج: ١٢، ١٣).

وإن لم يتبع المنهج الربانى الذى رسمه اللطيف الخبير، الحكيم العليم، اتبع مناهج من صنع البشر، الذين يقف علمهم عند حدود معينة ويدركون أشياء وتغيب عنهم أشياء، ويفيئون إلى الحق فى أشياء ويجرفهم الهوى فى أشياء، فيختلط فى مناهجهم الخير والشر وتنتهى بهم إلى البوار، وإن تمتعوا فى ظلها إلى حين، يطول أو يقصر حسبما يقدر الله.

أما فى الآخرة فالأمر أخطر بكثير.. فإما جنة وإما نار. جنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ونار ﴿ **كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ** ﴾ (النساء: من آية ٥٦).

﴿ **أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ** ﴾ (الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧).

﴿ أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ (القصص: ٦١).

* * *

قضية أخرى من القضايا التى ثبتها الإسلام نشيرُ إليها فى هذه العجالة، هى قضية العلاقة بين الجنسين.

لقد ثبتها الإسلام وأحاطها بالمثبتات من كل جانب، وجعلها من ركائز المجتمع الإسلامى.

وكما رأينا فى قضية «الدين» بمعنى عبادة الله وحده بلا شريك أن الإسلام ثبتها لأنها ترتكز على ثوابت لا مدخل إلى تغييرها، فكذلك نرى هنا، كما نلاحظ فى كل الثوابت التى ثبتها الإسلام.

ترتكز العلاقة بين الجنسين إلى ركيزتين ثابتتين، هما الرجل والمرأة من جهة، وعلاقة التجاذب بينهما من جهة أخرى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الروم: ٢١).

فهى علاقة العواطف المتبادلة، والسكن والسكينة التى يشعر بها كل من الجنسين فى وجود الآخر إلى جانبه.

ولا يوجد إلا طريقان اثنان لإجابة هذا التجاذب الفطرى، وتحقيقه فى عالم الواقع، طريق رسمه الله وأحله، ورتب جميع شئونه، وحدد لكل عضو فيه مسئولياته وحقوقه وواجباته، وطريق حرمه الله لما ينشأ عنه من الفساد فى الأرض، لا ضابط له إلا نزوة تشتعل حينا ثم تخبو، وتأخذ دائمًا جانبًا من الإنسان ولا تأخذه كله فى مرة من المرات.

الإنسان - كما خلقه الله - كلٌّ متكامل. جسد وعقل وروح، متكاملة كلها لا ينفصل فيها عنصر عن عنصر. وهو يتقلب فى حياته اليومية - وكل حياته المقدورة له

فى الأرض - فيبرز منه جانب الجسد فى لحظة، وجانب العقل فى لحظة، وجانب الروح فى لحظة، ولكن بروز هذا الجانب أو ذاك فى لحظة معينة لا يفكك ارتباطها الدائم بعضها ببعض، ولا يلغى تكاملها فى النهاية.

والطريق الذى رسمه الله وأحله، ورتب كل شئونه، هو الطريق الذى يشمل الإنسان كله - كُلاً متكاملا كما خلقه الله - وإن برز منه جانب فى لحظة، وجانب آخر فى لحظة، دون أن يفكك هذا ارتباطها الدائم بعضها ببعض، ولا يلغى تكاملها فى النهاية.

كل عناصر الكيان الإنسانى حاضرة فى الطريق الذى رسمه الله وأحله: جانب الجسد وجانب العقل وجانب الروح، حينما ننظر إلى الزواج من جميع زواياه، بما ينشأ عنه من نشء، وسعى وراء الرزق، وتدبير منزل، وعلاقات اجتماعية، وجهد تربوى، وتعاون أسرى، وتوجه إلى الله.

أما الطريق الآخر، المنسوب فى كتاب الله إلى الشيطان وأوليائه فلا يتحقق فيه من الإنسان إلا شذرات متناثرة، فضلا عما يبثه من الفساد فى الأرض.

* * *

اخترنا هاتين القضيتين بالذات من بين القضايا الكثيرة التى ثبتها المولى فى كتابه المنزل، لأن الجاهلية المعاصرة شطحت فيهما شطحة واسعة، ومكرت فيهما مكراً كبارا.

ولا بد أن نلقى نظرة على تاريخ أوربا فى جاهليتيها المتعاقبتين: جاهلية الفترة الكنسية فى العصور الوسطى - المظلمة عندهم - وجاهلية النهضة وما بعدها حتى اليوم.

وأنا أعلم أن كثيراً من الناس ينزعج انزعاجًا شديداً من تسمية ما عليه أوربا اليوم من التقدم العلمى والاقتصادى والحربى والسياسى أنه «جاهلية» فأقول لهم إن لفظ الجاهلية فى المصطلح القرآنى لا علاقة له بهذه الأمور كلها، وليس مقابلا للتقدم العلمى أو الاقتصادى أو الحربى أو السياسى، إنما هو متعلق بقضية مبدئية هى علاقة

البشر بالله سبحانه وتعالى وشرعه ومنهجه، وأنها - فى المصطلح القرآنى - تعنى الجهل بحقيقة الألوهية، وعدم اتباع ما أنزل الله، وأنها لا تنفى عن «الجاهليين» أن يكون عندهم علم أو حضارة أو تقدم فى أى ميدان من الميادين، إنما تسألهم: هل هم يعبدون الله حق عبادته؟ وهل هم متبعون ما أنزل الله؟ فإذا كانت الإجابة بالسلب فهم «جاهليون» يعيشون فى «جاهلية» مهما بلغوا من العلم الأرضى والحضارة المادية.

يقول رب العالمين فى هذه القضية: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ[1] وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الروم: ٩، ١٠).

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٨٢ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ[2]﴾ (المؤمن: ٨٢، ٨٣).

إذا تبينت القضية على هذه الصورة، وأن وصف الجاهلية المعاصرة بأنها جاهلية ليس فيه افتئات على شىء مما عند الغرب من التقدم العلمى أو القوة الحربية أو الاقتصادية أو السياسية فلنرجع إلى بعض حقائق التاريخ.

كانت الفترة التى سيطرت فيها الكنيسة الأوربية على مقاليد الأمور فترة ظلام وظلم لا نحتاج هنا إلى سرده، ويكفى ما أثبتته المراجع الأوربية ذاتها عن هذه الفترة التى استغرقت عشرة قرون كاملة من تاريخ أوربا، وبالذات ما روته تلك المراجع عن محاكم التفتيش، وهى أسوأ ما حدث فى تلك الفترة من ظلم وظلمات. ولكن

---

(١) أى حين أهلكهم لعصيانهم أوامره.

(٢) أى إهلاك الله لهم لعصيانهم وتكذيبهم.

نحتاج فقط أن نبين أننا نسميها جاهلية لأمر أساسى نتج عنه الظلم والظلمات، وهو أن ما كان مطبقا فى تلك الفترة لم يكن دين الله المنزل على عيسى عليه السلام، إنما كان حكم «رجال الدين» بكل ما اشتملوا عليه من انحراف عن دين الله، وأنهم هم الذين حولوا «الدين» إلى غول بشع يطارد الناس فى يقظتهم ومنامهم، ويسلب أموالهم، ويسلب طمأنينتهم، ويسد عليهم منافذ العلم، ويخضعهم لكل ألوان الطغيان: الروحى والعقلى والسياسى، ويحرقهم فى النار أحياء لمجرد الشك فى ولائهم للكنيسة.

هذه الحال هى التى أحدثت الانقلاب الهائل الذى حدث فى أوربا منذ النهضة، وهو انقلاب قلب الأحوال كلها والمفاهيم كلها من النقيض إلى النقيض.

كان «رجال الدين» قد حولوا «الدين» إلى دين أخروى لا يحفل بالحياة الدنيا، ويحقّر الإنسان ليمجد الله، ويحقر الجسد ليمجد الروح، فجاءت النهضة بدين - بمعنى منهج حياة - يصب همه كله فى الدنيا ويهمل الآخرة، ويمجد الإنسان بدلا من الله، وينفخ فى سَوْرَة الجسد ليطفئ إشراقة الروح.

ووجد اليهود فرصتهم السانحة للانتقام من دين الكنيسة الذى كانت تضطهدهم بموجبه، فعملوا على تدمير كل مقومات ذلك الدين اعتقادا وسلوكا، كما وجدوا فرصتهم السانحة فى إشعال نزوات الجسد لتحقيق مخططهم الخاص لاستحمار الأمميين، الذى شرحه تلمودهم والذى أهم بنوده إفساد العقائد وإفساد الأخلاق، وعمل «أساطينهم»: ماركس وفرويد ودوركايم بكل جهدهم، وبكل ما فى جعبتهم من ذكاء شرير لهدم هاتين الركيزتين بالذات: ركيزة الدين وركيزة الأخلاق[1].

فأما فى الدين فقد قال ماركس إنه «أفيون الشعوب» وقال فرويد إنه ينشأ من عقدة جنسية مكبوتة هى «عقدة أوديب» وجاء دوركايم فألغى تراث البشرية كله فى نصف سطر فى كتاب «مقدمة فى علم الاجتماع»: «وقد أراد بعضهم تفسير نشأة

---

(١) اقرأ - إن شئت - شيئًا من التفصيل حول هذا الموضوع فى فصل «دور اليهود فى إفساد أوربا» فى كتاب «مذاهب فكرية معاصرة»

الدين والزواج والأسرة على هذا النحو (أى على أنها أشياء من الفطرة) ولكن التاريخ يوقفنا على أن هذه النزعات ليست فطرية فى الإنسان[1]!!

وأما فى الأخلاق فقد قال ماركس إنها تكون دائمًا انعكاسًا للأوضاع الاقتصادية السائدة فى وقت من الأوقات، ولهذا فهى دائمة التغير من طور اقتصادى إلى طور، ولم يفته أن يقول إن الحرص على العفة الجنسية هو من أخلاقيات المجتمع الزراعى المتأخر، وأن الحرية الجنسية هى من أخلاقيات المجتمع الصناعى المتطور! وأما فرويد فقد وصفها بأنها كوابت تصيب الإنسان بالعقد النفسية والاضطرابات العصبية، ولا علاج لها إلا رفع الكبت عن الدافع الجنسى، وإتاحة الحرية الكاملة له، وأما دوركايم فقد مر بنا قوله إن الزواج ليس من الفطرة، فالفطرة إذن هى الطريق الآخر: العلاقات «الحرة» بلا ضابط!

وهكذا تشكل موقف الجاهلية المعاصرة من هاتين القضيتين بالذات: قضية الدين، وقضية العلاقة بين الجنسين، فبينما وضعهما المنهج الربانى فى الثوابت وضعتهما الجاهلية فى المتغيرات، وتم لليهود بهذه الطريقة ما شاءوا للأميين من الإفساد!

* * *

لا يجد المسلم أى إشكال فى قضية الثابت والمتغير حين يلتزم بالمنهج الربانى، فيثبت ما أمر الله بتثبيته، ويجتهد اجتهادا واسعًا فى المتغيرات، بحيث لا يحل حراما ولا يحرم حلالا ولا يصادم مقاصد الشريعة.

إنما نشأ الإشكال فى العقل الأوربى من ظروفه الخاصة. ففى الفترة الكنسية كان المنهج السائد هو الثبات.. الثبات فى كل شىء، سواء كان مما أمر الله بتثبيته، أو ما أوجبت الكنيسة تثبيته من عند نفسها، حتى نظام الإقطاع بكل فظائعه، وإلغائه لكرامة الإنسان، وحتى النظريات «العلمية» الخاطئة كانبساط الأرض بمعنى عدم كرويتها، وكونها مركز الكون. فلما حدث «الانقلاب» الذى كان رد فعل لمظالم

---

(١) إميل دوركايم، قواعد المنهج فى علم الاجتماع، ترجمة محمود قاسم مراجعة الدكتور السيد محمد بدوى ص ٥٨.

الكنيسة ورجال الإقطاع، ألغيت فكرة الثبات ذاتها، ووضع فى مكانها فكرة التغير الدائم الذى لا يسمح بثبات شىء على الإطلاق، وأعطت الداروينية دفعة كبيرة لهذا الاتجاه، وبذل «أساطين» اليهود جهدهم فى استغلال فكرة «التطور» الداروينية لإلغاء كل ما تعارف الناس من قبل على تثبيته، وبخاصة الدين والأخلاق.

وفى كلتا الحالتين لم تكن أوربا على صواب!

فحين ثبتت كل شىء، حتى ما كان شأنه التغير، جمدت الحياة وأسَنَتْ، خاصة وأنها ثبَّتت أوضاعا كانت فاسدة، ما كان لها أن تحدث أصلا كنظام الإَقطاع، فكان ما وصفته مراجعهم بأنه «القرون الوسطى المظلمة». وحين ألغيت الثوابت كلها، حتى ما أمر الله بتثبيته كالدين والأخلاق، حصل ما تعج به الجاهلية المعاصرة من ألوان الفساد، ولكن مع فارق جعل أوربا لا تحس بخطأ الأوضاع القائمة اليوم.

ففى الفترة الأولى - فترة القرون الوسطى المظلمة عندهم - كان هناك تأخر فى جميع الاتجاهات. فلما اتصلت أوربا بالعالم الإسلامى من المنافذ الثلاثة التى يعرفها التاريخ: الحروب الصليبية، والعلاقات التجارية، والاحتكاك بالحضارة الإسلامية فى الأندلس، وترجمة العلوم الإسلامية إلى اللاتينية والإغريقية، أحس الناس بالظلام الذى كانوا فيه، وقرروا أن يخرجوا إلى النور. أما فى هذه المرة فهناك تقدم علمى هائل، وهناك ثراء اقتصادى، وهناك قوة حربية وهيمنة سياسية تبهر عيون الناس، فلا يرون البقع المظلمة فى الحضارة القائمة. ويزيد الأمر سوءًا أن البديل الإسلامى، الذى يثبت الثوابت ويجتهد فى المتغيرات مرتبطًا بالثوابت، غائب عن الساحة، لما وقعت فيه الأمة من تأخر وضعف فى القرون الأخيرة بسبب انحرافها عن المنهج الربانى، فلم يعد أمام أوربا من يصحح لها خطأها كما حدث لها فى القرون الوسطى، بل استطاعت أوربا - بحكم غلبتها - أن تعدى المسلمين بلوثة التغير الذى يقضى على الثبات! فصار من يسمون أنفسهم «المثقفين» ينادون بانتهاج التغيير الذى يقضى على كل ما أمر الله به ألا يمسه التغيير، ويزعمون أن هذا هو الطريق الذى لا طريق غيره لإنقاذ الأمة مما هى فيه من ضعف وتخلف وهوان.

* * *

اللوثة الكبرى فى الجاهلية المعاصرة هى تأليه الإنسان نفسه بدلاً من الله : الإنسان هو الذى يضع المعايير ، والإنسان هو الذى يشرع ، والإنسان هو الذى يقرر لنفسه ما يباح وما لا يباح .

استمع لچوليان هكسلى - أحد ملاحدة هذا العصر - يقول فى كتابه «الإنسان فى العالم الحديث» (Man In The Modern World) : «لقد خضع الإنسان فى الماضى لله بسبب عجزه وجهله ، والآن وقد تعلم وسيطر على البيئة ، فقد آن له أن يأخذ على عاتق نفسه ما كان يلقيه فى فترة العجز والجهل على عاتق الله ، ومن ثم يصبح هو الله» .

وغنى عن البيان أنه ليس كل إنسان فى الغرب على شاكلة چوليان هكسلى ، وهناك «متدينون» كثيرون ، بل هناك صحوة دينية فى الغرب اليوم على أساس نبوءاتهم التى تقول إن المسيح سينزل فى الألفية الثالثة . ولكن ما «الدين» فى نظر هؤلاء «المتدينين»؟ علاقة بين العبد والرب ، محلها القلب ، ولا شأن لها بواقع الحياة!

أفهذا هو «الدين» الذى أنزله الله ليحكم واقع الحياة ، والذى قال عنه : ﴿ **وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (المائدة : ٤٧) وقال عنه : ﴿ **وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ** ﴾ (المائدة : ٤٩) وقال بشأنه : ﴿ **أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾ (المائدة : ٥٠)؟

كلا . . بكل تأكيد!

العدل السياسى فى الإسلام

يرتكز العدل السياسى فى الإسلام إلى مجموعة من الركائز، ولكن الركيزة الأولى والعظمى هى منع البشر من التشريع فى أمور الحياة الأساسية، وقصر حق التشريع فى هذه الأمور على الله سبحانه وتعالى.

وغنى عن البيان أن هذا المفهوم يصطدم اصطداما مباشرًا مع الديمقراطية التى يعتقد كثير من الناس - فى الشرق والغرب - أنها أعدل نظام عرفته البشرية فى تاريخها الطويل. فالديمقراطية تجعل - فى شعاراتها على الأقل، وسنبين بعد قليل مدى صدقها فى تطبيق الشعارات فى عالم الواقع - أن الأمة هى مصدر السلطات. وتجعل الأمة - أى البشر - مصدر السلطات فى أمرين أساسيين: اختيار الحاكم، وسن القوانين التى يلتزم بها الحاكم والمحكوم، بينما الإسلام يجعل اختيار الحاكم من شأن الأمة، ولكنه يجعل التشريع من شأن الله جل جلاله، خالق البشر، وخالق السماوات والأرض، ويأمر الحاكم والمحكوم كليهما باتباع ما أنزل الله، ويقرر - تقريرًا واضحًا - أنه من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون، وهم الظالمون، وهم الفاسقون، وهى أوصاف ثلاثة يصف الله بها من لم يحكم بما أنزل الله، وليست صفات متفرقة يتصف بها فريق من البشر دون فريق:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ

الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة: ٤٤ ـ ٥٠).

وواضح من هذه الآيات المحكمات أن الأوصاف الثلاثة المذكورة فيها، وهى «الكافرون» و«الظالمون» و«الفاسقون» هى أوصاف على درجة واحدة لمن لم يحكم بما أنزل الله وليست درجات مختلفة. فلفظ «من» حين يطلق يفيد العموم، أى كل من يتأتى منه عمل معين أو يتصف بصفة معينة. كما أن وصفين من الثلاثة وردا بشأن جماعة واحدة تقوم بعمل واحد محدد، وهم اليهود الذين لا يحكمون بما أنزل الله، ولا يعقل أن تكون جماعة واحدة تقوم بعمل واحد معين تكون مرة من الكافرين ومرة أخرى من الظالمين غير الكافرين، كما أراد بعض الناس أن يفسروا الآيات، مستندين إلى قول ابن عباس رضى الله عنه: «كفر دون كفر»!

إن الذى تشير إليه الآيات هو الإعراض عن شريعة الله وإحلال شرائع البشر محلها، وهو كفر فى جميع الحالات، وظلم فى جميع الحالات، وفسق فى جميع

الحالات على مستوى واحد. أما الذى أشار إليه ابن عباس رضى الله عنه، وقال عنه إنه كفر دون كفر، فشىء مختلف، وهو الإقرار بما أنزل الله مع الالتواء فى التطبيق لسبب من الأسباب. أما حين حكم التتار بالياسق بدلا من شريعة الله فقد أجمع العلماء على أن عملهم هذا كفر مخرج من الملة، لا يندرج تحت مقولة ابن عباس.

وواضح كذلك من الآيات أن الله جعل الحكم نوعين اثنين لا ثالث لهما، إما حكم الله، وإما حكم الجاهلية، ثم أنكر على من يبتغى حكم الجاهلية بديلاً من حكم الله.

ونبادر فنقول إن الديمقراطية - وهى حكم جاهلية حسب منطوق الآية الكريمة، لأنها تحكم بغير ما أنزل الله، وترفض أن تحكم بما أنزل الله - فيها إيجابيات ضخمة بالنسبة للشعوب التى كانت تُحكَم بالحق الإلهى المقدس، الذى كان يحكم به الملوك والأباطرة فى قرون أوربا الوسطى المظلمة، وكانت تؤدى كل ما يفرض عليها من الواجبات وتحرم من جميع الحقوق والضمانات، فقد أعطت الديمقراطية تلك الشعوب المسحوقة حقوقًا وضمانات رفعتها فى كثير من الجوانب من «الشيئية» التى كانت تعيشها إلى «الآدمية».

ونبادر كذلك فنقول إن الديمقراطية بالنسبة للمسلمين أفضل بكثير، وأعدل بكثير، من الحكم الاستبدادى الذى عاشته الأمة فى فترات من تاريخها، وتعيشه اليوم فى بعض أرجائها فى ظل حكومات عسكرية مستبدة.

ولكننا نلفت الأذهان إلى أن الذى نتكلم عنه، ونقول إنه أعدل من كل نظام طبقه البشر هو الإسلام كما أنزل الله، لا كما مارسته بعض أجيال من الأمة الإسلامية، وإنما كما طبق تطبيقًا صحيحًا فى صدر الإسلام، وإن الإسلام كما أنزله الله - كما قلنا أكثر من مرة - حجة على الأمة، وليست الأمة فى أى جيل من أجيالها حجة عليه، فإن استقامت الأمة عليه فهى مستقيمة على أمر الله، وإن انحرفت عنه فهى منحرفة عن أمر الله، ويظل دين الله كما أنزل، لا يعتريه تبديل ولا حذف ولا

إضافة، ويظل هو النعمة الربانية التى تفضل الله بها على الناس: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (المائدة: من آية ٣).

* * *

فى الديمقراطية - كما أسلفنا - إيجابيات ضخمة، لا نحتاج إلى التوكيد عليها. ولكن الذى نحتاج أن نؤكد عليه هو السلبيات التى يغفل عنها دعاتها سواء من بين أهلها أو بين المسلمين المخدوعين بلألائها الخاطف.

الديمقراطية - بادئ ذى بدء - مسرحية جميلة تخيِّل لرجل الشارع أنه هو الذى يحكم، بينما الذى يحكم حقيقة هو رأس المال، الذى تسخر لحسابه كل مجالات الحياة.

إن الناخب فى البلاد التى تطبق الديمقراطية تطبيقًا حقيقيًا حر حرية كاملة فى اختيار النائب الذى ينتخبه. لا أحد يضغط عليه ليعطى صوته لشخص معين، ولا أحد يمنعه من إعطاء صوته لمن يريد. ولا أحد - على الإطلاق - يتدخل لتزييف إرادته، أو يقوم بتزوير العملية الانتخابية لصالح أحد من الناس. فهو يمارس العملية الانتخابية بحرية كاملة، ويشعر بالأمان الكامل وهو يؤديها، لا رجال الأمن يضربونه بالعصا، أو يضعون المتاريس فى طريقه ليتعذر عليه الوصول، أو يزيفون ورقته التى اختار فيها نائبه بعد أن يغادر مكان الاقتراع، أو يلقون بالصناديق الحقيقية فى النهر ويأتون بدلاً منها بصناديقَ مفصلة على هوى الحاكم.

نعم. ولكن..

من المرشحون الموجودون أمامه الذين يختار - بحريته الكاملة - واحدًا منهم؟! ومن يخدمون فى الحقيقة؟!

الحقيقة - من وراء هذه المسرحية الجميلة - أنهم - إلا قلة منهم - يمثلون رأس المال، ويخدمون مصالح رأس المال!

فالناخب يختار - بحرية كاملة - المرشح «أ» أو المرشح «ب» أو المرشح «جـ» أو

المرشح «د»، ولكن المرشح «أ» والمرشح «ب» والمرشح «جـ» والمرشح «د» يمثلون ـ إلا قلة منهم ـ الحاكم الحقيقى، وهو رأس المال، ويخدمون مصالحه!

أما هذه القلة فقد يكون فيها من هو صاحب ضمير فعلا، ومن يسعى إلى الخير فعلا، ومن يرفض الظلم والجور فعلا. ومن إيجابيات الديمقراطية حقّا ـ ومن مفاخرها ـ أن هؤلاء يقولون بحرية ما يعتقدون، فلا توصد أمامهم أبواب الإعلام، ولا يفكر الحاكم فى اعتقالهم إذا انتقدوه ـ ولو اشتد النقد ـ ولا يدبر لهم التهم التى تؤدى إلى محاكمتهم والزج بهم فى السجون . .

نعم . . ولكن . .

ما وزنهم حين تتخذ القرارات فى المجالس بعدد الأصوات دون نظر إلى نوعيتها، فيستوى صوت الخبير العاقل الحكيم البعيد النظر وصوت الإمعة الذى يوجهه حزبه فيتوجه، ويأمره فيلبى، وينقسم الناس فى غالبيتهم إلى مؤيدين محترفين، ومعارضين محترفين، الأولون هم أعضاء الحزب الحاكم يؤيدون كل ما تقدمه الحكومة أو تقدم عليه، والآخرون ـ أعضاء الحزب الذى لم يفز فى الانتخابات ـ يعارضون كل ما تقدمه الحكومة أو تقدم عليه، إلا أن تكون هناك مصلحة لرأس المال فيحدث الإجماع! وتبقى القلة ـ المستقلة ـ تقول ـ بحرية كاملة ـ كل ما تريد أن تقول، دون أن يكون لقولها وزن عند اتخاذ القرار!

وينظر عند اتخاذ أى قرار إلى عدد الأصوات التى ستكون معه، والأصوات التى ستكون ضده، دون النظر إلى كون القرار سليمًا ونافعًا أم فاسدًا ومفسدًا كقرار دخول الحرب فى العراق، الذى كان أسوأ قرار وأكثرها ضررًا حتى على مصالح أمريكا ذاتها، فضلا عما نتج عنه من جرائم إنسانية بشعة، ودماء بريئة تراق، وبيوت تهدم على رءوس أصحابها، وتدمير شامل للعراق، ومع ذلك مر القرار بعدد الأصوات التى أجازته، ومن ورائها المؤسسات الرأسمالية الكبرى، سواء التى تعيش على صناعة السلاح، أو التى تسعى لامتلاك البترول.

هذه واحدة . .

ولننظر من جهة أخرى إلى «رجل الشارع» الذى تعتمد عليه العملية الانتخابية فى الغرب، والتى هى عصب الديمقراطية.

كيف صنعته الديمقراطية الرأسمالية ليخدم مصالح رأس المال؟

لا نتكلم بطبيعة الحال عن كل الناس. ففى المجتمع الغربى «مفكرون» و«مصلحون» وأصحاب نظرات ثاقبة، وأصحاب دراسات عميقة، سياسية واجتماعية واقتصادية وأخلاقية وتربوية.. إنما نتكلم عن الذى يسمونه هم «رجل الشارع» أى الفرد العادى من الناس. ما اهتماماته؟ ما آفاقه؟ هل هو صاحب «عقيدة» تملى عليه موقفًا معينًا من الحياة؟ هل هو صاحب «مبادئ» يسعى إلى نشرها أو ترسيخها؟ أم إن الديمقراطية الرأسمالية قد صاغته الصياغة التى تخدم مصالح رأس المال؟ إنسان مشغول بمتاع الحياة الدنيا، ليس للآخرة حساب فى حسه، مشغول بتأمين أكبر قدر من المتاع، وتأمين أكبر قدر من المشتريات؟

نعم قد يكون واعيًا لحقوقه «الدستورية» التى تؤمن له هذا القدر من المتاع، ولكن هل له «موقف» من القضايا الإنسانية الكبرى، أو له اهتمام «بالإنسان» خارج محيطه الضيق، أم إنه يتلقى «موقفه» من انتمائه الحزبى أو من وسائل الإعلام.. أى فى النهاية من أصحاب رءوس الأموال الذين يملكون وسائل الإعلام؟

وثمة أخرى..

إن الديمقراطية لم تنبت نباتًا ذاتيًا طبيعيًا فى الحياة الغربية، إنما كانت رد فعل للطغيان المصبوب على الشعوب من قبل «السادة» سواء كانوا الأباطرة والأمراء أو رجال الدين.

وككل رد فعل فى التاريخ يحدث إصلاح فى جانب وشطط فى جانب آخر.

وكان الشطط الذى وقع فى رد الفعل الأوربى - سواء وقع تلقائيًا أو أحدثه اليهود الذين ركبوا الموجة ووجهوها لحسابهم الخاص[1] - هو توسيع دائرة «الحرية

---

(١) اقرأ إن شئت «دور اليهود فى إفساد أوربا» فى كتاب «مذاهب فكرية معاصرة».

الشخصية» حتى تشمل حق الإلحاد وحق الانحلال الخلقى، فى مقابل الكبت الذى اتسمت به الحياة الأوربية فى عصور أوربا الوسطى المظلمة، وصار هذا من سمات الديمقراطية الرئيسية، ومن الركائز التى لا يجوز المساس بها، ولو تناول الشطط الذات الإلهية، أو نبيا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، أو قيمة من قيم الفضيلة التى يتميز بها «الإنسان» عن الحيوان.

وكفى بذلك فساداً وضلالا تحميه الديمقراطية وتعض عليه بالنواجذ، وتعتبره من مفاخرها!

* * *

الركيزة الكبرى للعدل السياسى فى الإسلام هى كف البشر عن التشريع، وجعل التشريع حقّا خالصًا لله سبحانه وتعالى، هو الذى يشرع، وهو الذى يضع المعايير، وهو الذى يحدد للبشر ما يجوز لهم وما لا يجوز، بحكم كونه سبحانه وتعالى هو الخالق، وهو الرزاق ذو القوة المتين، وهو الحكيم العليم، وهو الغنى، وهو اللطيف الخبير. . إلى آخر ما يتفرد به الله من الصفات.

﴿ **أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ** ﴾ (الأعراف: من آية ٥٤) فبحكم أنه الخالق ـ سبحانه ـ فهو صاحب الحق فى صياغة حياة خلقه الذين خلقهم وحده، ورزقهم وحده، وإليه مرجعهم وحده. ﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ (البقرة: ٢٩) فبحكم أنه العليم بكل شىء فهو الذى يعلم أين تقع مصلحة هذا المخلوق الذى خلقه وحده، ورزقه وحده، وإليه مرجعه وحده.

﴿ **سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ** ﴾ (يونس: من الآية ٦٧) فبحكم أنه الغنى فليست له «مصلحة» عند أحد من خلقه فيحابيه من أجلها. كلهم خلقه بالسوية، وكلهم عباده بالسوية، وكلهم راجعون إليه بالسوية، فلا يشرع سبحانه لمصلحة فريق من البشر على حساب فريق آخر. لا يشرع للأغنياء على حساب الفقراء، ولا للفقراء على حساب الأغنياء، ولا لحساب الأبيض على الأسود، ولا لحساب الأسود على

الأبيض، إنما يشرع لحساب البشر جميعًا، غنيهم وفقيرهم، وأبيضهم وأسودهم تشريعا واحدًا يلزم به الجميع، وتتحقق به مصلحة الجميع، بينما تشريعات البشر غالبًا ما يحدث فيها حيف فريق على فريق بحكم ما فى البشر من انحياز لذواتهم، وتغليب لمصلحتهم الخاصة على مصالح غيرهم.. إلا ما رحم ربك:

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ ﴾ (المعارج: ١٩ - ٢٢) ﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ (العاديات: ٨).

* * *

الركيزة الثانية للعدل السياسى فى الإسلام هى إلزام الحاكم والمحكوم بما أنزل الله.

الحاكم ملزم بالعدل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (النساء: ٥٨).

والمحكومون ملزمون بالسمع والطاعة لأولى الأمر فيما يطيع فيه أولو الأمر الله ورسوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ (النساء: ٥٩).

وواضح من الآية أن طاعة الله وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واجبة إطلاقًا. أما طاعة أولى الأمر فمقيدة بما يطيعون فيه الله ورسوله. ولو قال الله سبحانه وتعالى: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأطيعوا أولى الأمر منكم لوجبت طاعتهم إطلاقا كطاعة الله والرسول. ولكنه جل وعلا لم يقل ذلك، إنما أضاف طاعة أولى الأمر إلى طاعة الله والرسول التى هى وحدها التى تجب إطلاقا، بدليل رد المتنازع فيه من الأمور إلى المصدر الوحيد الملزم إلزامًا مطلقا، وهو ما يقرره الله

ورسوله صلى الله عليه وسلم. وهذا ما فهمه أبو بكر رضى الله عنه حين قال: أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم- ووضع بذلك الدستور الملزم للأمة المسلمة، المستمد من كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وليس هنا مجال التفصيل فى أمر الحاكم الجائر، فهذا مبحث يطلب فى كتب الفقه المتخصصة، ولكنا نقول فى هذه العجالة إن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن الخروج المسلح على الحاكم الجائر، الذى يمتثل لما أنزل الله من حيث المبدأ ولكنه يجور فى التطبيق، لأن هذا الخروج يشكل مفسدة مؤكدة، ودفع المفسدة واجب فى الإسلام مقدم حتى على جلب المصلحة. ولكن الظن بأن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر الأمة أن ترضى بالظلم وتسكت عليه فمنكر لا يقره الله ولا رسوله. وليرجع من شاء إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وليبحث فيهما عن نص واحد يجيز هذا المنكر، بصرف النظر عما وقع من الأمة خلال التاريخ، فالإسلام حجة على الأمة، وليست الأمة حجة عليه!

لقد شدد الرسول صلى الله عليه وسلم على عدم الخروج على الحاكم الجائر، ولكنه فتح أبوابًا لإزالة الظلم حتى لا يتمكن فى الأرض، منها النصيحة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وما يمكن أن نسميه بلغة العصر الحاضر «الوسائل السياسية» ولكنه لم يأمر قط بالسكوت على الظلم، ولا دعا قط إلى الرضا به:

«إذا رأيتم أمتى تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منها» (رواه الإمام أحمد فى مسنده).

«سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله» (رواه الحاكم فى المستدرك).

«الدين النصيحة. قلنا لمن؟ قال: لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم» (رواه مسلم).

«من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فمن لم يستطع فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» (رواه مسلم).

«إنه يستعمل عليكم أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضى وتابع» (رواه مسلم).

* * *

وفى هذا الدستور المستمد من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم تلتزم الأمة بالطاعة لأولى الأمر - فيما أطاعوا فيه الله ورسوله - ولكنها فى الوقت ذاته مكلفة بالرقابة على أعمال الحاكم للتثبت من مراعاته لما أنزل الله. فالحاكم والمحكوم - فى الإسلام كما أنزله الله - شركاء فى ضمان الالتزام بما أنزل الله، والأمر - من طرفيه - ضرورى لضمان هذا الالتزام. فلا بد للحاكم من سلطة يلزم الناس بها حتى تكون تصرفاتهم منضبطة مع متطلبات شرع الله، وسلطة يعاقب بها من يخرج على تلك المتطلبات، ولا بد للأمة - من الجانب الآخر - من سلطة تلزم بها الحاكم أن يحكم فى حدود ما أنزل الله؛ فتتكامل السلطتان لتوفية متطلبات هذا الدين.

وفى التطبيق الصحيح لهذا الأمر حدث فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن قام على المنبر فقال: يأيها الناس اسمعوا وأطيعوا، فانتدب له سلمان الفارسى رضى الله عنه فقال: لا سمع لك اليوم علينا ولا طاعة. قال عمر: ولِمَ؟ قال سلمان: حتى تبين لنا من أين لك هذا البرد الذى ائتزرت به، وأنت رجل طوال لا يكفيك برد واحد كما نال بقية المسلمين. فنادى عمر رضى الله عنه ابنه عبد الله رضى الله عنه فقال له: نشدتك الله، هذا البرد الذى ائتزرتُ به أهو بردك؟ قال عبد الله بن عمر رضى الله عنه موجها خطابه للناس: إن أبى رجل طوال لا يكفيه برد واحد كما نال بقية المسلمين فأعطيته بردى ليئتزر به. فيقول سلمان رضى الله عنه: الآن مر! نسمع ونطع!

وقام عمر رضى الله عنه على المنبر ينهى عن المغالاة فى المهور، فانتدبت له امرأة

من المسلمين فقالت : حجرت واسعًا يا أمير المؤمنين ، والله يقول : ﴿ **وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا** ﴾ فقال عمر رضى الله عنه : أخطأ عمر وأصابت امرأة . فضرب بذلك مثلا رائعًا فى الالتزام بالدستور المستمد من كتاب الله وسنة رسوله .

ونكرر هنا ما قلناه من قبل : إذا كانت الأمة فى مسيرتها التاريخية لم تلتزم بهذا الدستور فالإسلام حجة عليها وليست هى حجة عليه .

* * *

الركيزة الثالثة للعدل السياسى فى الإسلام هى الشورى .

والشورى عميقة فى كيان هذا الدين[1] . انظر إلى قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** ﴾ (الشورى : ٣٨) .

إن ورود ذكر الشورى بين فريضتين ملزمتين هما الصلاة والزكاة يوحى بأنها فريضة مثل الصلاة والزكاة ، لا بد من القيام بها فى المجتمع المسلم .

ومما له دلالة واضحة ما جاء فى سورة آل عمران : ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ (آل عمران : ١٥٩) .

والقصة معروفة . ففى وقعة أحد أشار الشيوخ بأن يبقى جيش المسلمين داخل المدينة ، فإذا جاء العدو أحاطوا به داخل المدينة فهزموه ، ومال الشباب إلى الخروج لملاقاة العدو خارج المدينة ، تشوقًا منهم إلى القتال فى سبيل الله رجاء الفوز بإحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة كما قال تعالى : ﴿ **قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ** ﴾ (التوبة : ٥٢) . ولما رأى الرسول صلى الله عليه وسلم تشوفهم مال إلى رأيهم وخرج بالجيش خارج المدينة ، وانتصر المسلمون فى بادئ الأمر ، ولكن لما

---

(١) انظر إن شئت الكلام عن الشورى فى كتاب «مكانة التربية فى العمل الإسلامى» .

خالف الرماة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ألا يتحركوا من أماكنهم فوق جبل الرماة ولو رأوا المسلمين يتخطفهم الطير، وظنوا أن المعركة انتهت بنصر المسلمين فصاروا فى حل من الأمر، ونزلوا من أماكنهم يسعون إلى الحصول على نصيبهم من الغنائم، حدثت الهزيمة التى قتل فيها سبعون شهيداً من المسلمين، وكسرت رباعية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجرح من جرح.. حتى أنزل الله سكينته على المسلمين بعد الغم الذى أصابهم: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ (آل عمران: ١٥٤).

عندئذ صار مبدأ الشورى ذاته على المحك، فى نفوس البعض على الأقل، الذين قد يرون أن استجابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لرأى الشباب كانت سبباً - ولو غير مباشر - فى الهزيمة التى لحقت بالمسلمين. فحين يتنزل القرآن يوجه الرسول صلى الله عليه وسلم أن يشاورهم فى الأمر يتضح أن الشورى ركيزة أساسية للمجتمع المسلم لا غنى عنها فى السراء والضراء سواء.

ويؤكد هذا الأمر كذلك ما جاء فى كتب السيرة من أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر من مشاورة أصحابه رضوان الله عليهم، وهو - صلى الله عليه وسلم - ما كان فى حاجة إلى المشاورة، وهو الذى يتنزل عليه الوحى من عند الله يوجه خطاه، ويثبته على كل عمل يقوم به لصالح الدعوة، ويصحح أى تصرف يراه الله سبحانه وتعالى محتاجًا إلى التصحيح، كما جاء فى ثلاثة مواضع فى القرآن الكريم: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ① أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ﴾ (عبس: ١، ٢) و ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ (التوبة: ٤٣) و ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ (الأنفال: ٦٧).

فحرص الرسول صلى الله عليه وسلم على الإكثار من مشاورة أصحابه - وهو الغنى عن المشاورة - كان لتأسيس هذه الركيزة من ركائز العدل السياسى فى الإسلام، وتعميقها حتى تصبح أصلا من أصول المجتمع المسلم، فإذا كانت الأمة

فى ظروف تاريخية لم تلتفت كثيراً إلى هذا الإيحاء، فهذا خطؤها، ولا يحسب على الإسلام.

بقى أن نقول إنه إذا كانت الشورى من الثوابت التى أراد الله لها الثبات فى المجتمع المسلم، فإن الصورة التى تتم بها من المتغيرات التى يحكمها واقع الأمة فى وقت من الأوقات. فحين كانت القبيلة أصلا من أصول المجتمع فى وقت معين، وكان أفراد القبيلة يلتزمون بما يراه شيخها، كان تمثيل القبيلة بشيخها أمرا منطقيّا فى تلك الظروف، ولم يكن الأمر حينذاك يقتضى أن يعرف رأى أفراد القبيلة فرداً فرداً، فرأى شيخهم هو رأيهم لا محالة، وإن تواضع أحد شيوخ القبائل كما تواضع شيخ قبيلة غزية الشاعر دريد بن الصمة الذى يقول:

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد!

ولكن حين تذوب القبيلة، ويستقل الفرد بذاته، يفكر لنفسه، ويقرر لنفسه، فلا بد أن تتغير صورة الشورى لتناسب الوضع الجديد فى المجتمع.

وكل ما يجرى الحديث حوله من كون الشورى معلمة أم ملزمة، ويتكون لها مجلس أم مجلسان.. إلخ أمور يقررها المجتمع المسلم لنفسه حسب ظروفه، بحيث لا يتغير الأصل الثابت فيلغى، أو يصبح أمراً صوريّا ليست له فاعلية حقيقية، فهذا مخالف لركيزة أساسية من ركائز العدل السياسى فى الإسلام.

* * *

الركيزة الرابعة أن ما أذن الله فيه للمؤمنين بالاجتهاد، مربوط بالثوابت التى ثبتها الله فى كتابه المنزل، وفى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، بحيث لا تحل حراما ولا تحرم حلالا ولا تصادم مقاصد الشريعة.

وهذا أمر له أهميته.

فحين يمنع البشر إطلاقًا من الاجتهاد فى المتغيرات تتوقف الحياة، وتتاح الفرصة

لطغيان فئة من الناس على بقية المجتمع، وحين يفتح الباب على مصراعيه للاجتهاد كما تصنع الديمقراطية (فيما لا يمس مصالح رأس المال!) يحدث ما يراه الناس فى مجتمعات الغرب اليوم من إباحة الفاحشة بكل ألوانها، حتى الشاذ منها، وانحلال الضوابط الخلقية عند الناس، وضعف الإيمان باليوم الآخر، وانكباب الناس على الدنيا، والتبذل باسم الفن، وباسم الإبداع، وباسم الحرية الشخصية، فتتفكك روابط الأسرة، وينطلق الرجل والمرأة والشاب والفتاة كل على هواه، ويفقد الإنسان آدميته.

فى الإسلام لا يحدث ذلك.

يجتهد الناس فى المتغيرات، لكى يوائموا ظروفهم، ولكن لا يحلون حرامًا، فلا يبيحون الخمر، ولا يبيحون الربا، ولا يبيحون الفاحشة بكل ألوانها، ولا يحرمون حلالا، فلا يستعبدون الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا كما قال عمر رضى الله عنه، ولا يمنعون الفتاة أن تأخذ نصيبها من الميراث كما يباح للفتى[1]، ولا يرغمونها على الزواج بمن لا ترتضيه زوجا.. إلى عشرات من المواقف ومئات، ليس هنا مجال التفصيل فيها، فالحديث هنا عن الملامح العامة للمجتمع المسلم حين يعيش الإسلام كما أنزل الله.

ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن باب الاجتهاد ليس مفتوحًا على مصراعيه، إنما يتولاه الفقهاء فى دين الله، ويرجع فيه إلى الدليل، فلا تدخل فيه الأهواء، وقد يختلف الرأى ما بين فقيه وفقيه (وحدث ذلك فى واقع الأمر) ولكن لا يصل الاختلاف إلى تحليل حرام حرمه الله، أو تحريم حلال أحله الله، وذلك هو الضمان للمجتمع الراشد الذى يحكم بما أنزل الله.

---

(١) سنتحدث فى مكان آخر عن اختلاف نصيب الأنثى عن نصيب الذكر فى المال الموروث، وحكمته فى دين الله.

العدل الاقتصادى فى الإسلام

الركيزة الأولى فى العدل الاقتصادى فى الإسلام هى تحريم الربا.

ولقد كان الربا ملعونا فى كل الرسالات السماوية، ولكن اليهود ـ دهاقنة الربا ـ تلاعبوا فى النص الربانى الوارد فى التوراة على طريقتهم فى الالتفاف على كل نص يقف فى طريق أهوائهم وشهواتهم ليبرروا ما هم عليه من الفساد؛ إذ تقول التوراة: «لأخيك لا تبع بربا» فقالوا: لأخيك أى لليهودى. أما الأميون ـ أو الأمميون بتعبير التلمود ـ فاستلاب أموالهم عن طريق الربا حلال مباح لليهود، كما يحكى عنهم القرآن الكريم: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (آل عمران: من آية ٧٥).

ولكن النصوص فى تحريم الربا فى القرآن الكريم قاطعة وحادة، بحيث لا تجعل لأحد مجالا للالتفاف حولها:

﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن

كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٧٥ ـ ٢٧٩).

ولم يرد مثل هذا التشديد بالنسبة لأى جريمة أخرى سوى جريمة الربا، ولذلك دلالته ولا شك.

إن الجريمة الكبرى للربا هى استغلال حاجة إنسان إلى المال، للتسلق عليها لجنى أرباح بدون جهد مبذول من قبل صاحب المال أكثر من أنه صاحب مال! وكون هذه جريمة ضد الإنسانية أمر واضح لكل ذى حس إنسانى، مهما تلفع به المرابون من الحجج ليبرروا جريمتهم.

ولكن الجريمة لم تبد واضحة كما وضحت فى العهد الأخير، عهد السيطرة اليهودية الجامحة. فقد كانت من قبل تنصب على أفراد بأعيانهم، هم الذين يقترضون من صاحب المال ليقيموا بعض شئونهم، فيقعون فى حبائل الربا الذى يصبح فى النهاية أضعافًا مضاعفة إذا عجز المدين عن السداد. أما اليوم فالجريمة أوسع مدى بكثير، وأشد إجرامًا بكثير. فلم تعد مشكلة أفراد إزاء أفراد، بل صارت مشاكل دولية على نطاق واسع، يقع الناس فى حبائلها بالملايين!

فى أربعينيات القرن الماضى كتب خبير ألمانى يسمى «جوزيف شاخت» تقريرًا عن الربا قال فيه إن نتيجته الحتمية هى زيادة المال فى يد فئة يتناقص عددها باستمرار، وتزايد الفقر فى فئة يتزايد عددها باستمرار. واليوم لم يعد الفقراء الواقعون فى حبائل الربا أفرادًا، بل دولا بأكملها، ترزح تحت وطأة الديون، ويتعثر اقتصادها باستمرار، وتبذل جهدها لا لسداد أصل الدين، بل لسداد «الفوائد» المتزايدة باستمرار، مع بقاء الدين على أصله، وفى الجانب الآخر دول تستعبد دولا أخرى مقابل القروض التى تقرضها إياها، وتعيش هى فى ترف فاجر وهى تتفرج على آلام البشر! ثم تسعى تلك الدول ـ بمالها الحرام المستلب من دماء الفقراء ـ للاستيلاء على منابع الطاقة فى الأرض لتزداد غنى وتزداد ولغا فى دماء المستضعفين!

لقد كانت حكمة الله بالغة ـ ولله الحكمة البالغة ـ حين حرم الربا تحريمًا قاطعًا ليحول دون تلك الجرائم كلها، سواء وقعت فى حق أفراد أو دول، وجعل تحريم الربا الركيزة الكبرى للعدل الاقتصادى فى الدين المنزل من عند الله.

* * *

الركيزة الثانية للعدل الاقتصادى فى الإسلام هى المقابل تمامًا للربا، الوارد فى الآية القرآنية الكريمة: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ (البقرة: ٢٧٦).

إنها الزكاة.

انظر إلى الفارق الإنسانى الضخم بين الربا والصدقات!

هنا إنسان ذو مال يتصيد المحتاجين ليقرضهم، ليوقعهم فى حبائله، ليمتص جهدهم، ليكتنز بشحم حرام، يستلبه من دم المحتاجين، وفى مقابله إنسان ذو مال، يتنازل طواعية ـ إرضاء لله ـ عن جزء من ماله، يقيم به عثرة المحتاجين، ليخرجهم من عوزهم ولو إلى أدنى درجات الاكتفاء، ليعيشوا كراما مستورى الحال.

ما أبعد الصورة بين هذا وذاك، لا من الوجهة الاقتصادية وحدها، ولكن ـ قبل ذلك ـ من الوجهة الإنسانية.

إن كل توجيهات الإسلام قائمة على قاعدة إنسانية قبل أن تكون سياسية أو اقتصادًا أو اجتماعًا أو فكرًا. قائمة على أساس احترام إنسانية الإنسان من حيث هو إنسان، مكرم من لدن خالقه ابتداء: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (الإسراء: ٧٠).

ومن أجل ما يجره الربا من الويلات على المحتاجين من الناس قال الله: ﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُضْعِفُونَ﴾ (الروم: ٣٩). وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه» (رواه مسلم).

وانظر إلى الجاهلية المعاصرة، وإلى الديمقراطية الرأسمالية، تدير كل تعاملاتها بالربا، ثم تزعم أنها أعدل نظام عرفته البشرية في تاريخها كله!

* * *

وحين يحرم الله الربا ويفرض الزكاة حقًا للفقراء على الأغنياء، تجبيه الدولة وتوزعه على مصارفه الواردة فى كتاب الله، تنشأ فى المجتمع حركة اقتصادية نظيفة.

فلكى لا تتناقص رءوس الأموال عامًا بعد عام يتحتم على رأس المال أن يعمل لينمو. ويحدد الإسلام للتنمية شروطا: ألا يكون فيها غصب ولا سرقة ولا احتكار للضروريات، ولا أكل لمال الأجير ولا سرف ولا مخيلة. وعندئذ تتاح فرص عمل للعاملين، ويتشارك المجتمع كله فى ثمار التنمية النظيفة التى لا يقع فيها ظلم على أحد.

وغنى عن البيان أن الزكاة فريضة تجبيها الدولة وتعاقب الممتنعين عن أدائها: **﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾** (التوبة: ٦٠).

ولكن فى المال حقًا سوى الزكاة كما قرر الرسول صلى الله عليه وسلم، لم يفرضه الله ولكنه حبب إليه، ووعد القائمين به بالجنة والرضوان: **﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾** (آل عمران: ١٣٣، ١٣٤).

وتلك من أساليب التربية الربانية للمؤمنين: يفرض الحد الأدنى الذى لا تستقيم

الحياة بدونه، ويفرض عقوبة على المقصرين فيه، ولكنه يفتح الباب للتطوع النبيل بغير حدود، يتسابق فيه الخيرون ابتغاء مرضاة الله، فيعم الخير الجميع.

* * *

الركيزة الثالثة للعدل الاقتصادى فى الإسلام هى التكافل، بنوعيه: المفروض والتطوعى.

هناك تكافل يفرضه الإسلام فرضًا داخل الأسرة. فرب الأسرة مكلف تكليفًا أن ينفق على الزوجة والأبناء، وعلى الفقراء من ذوى قرباه. وهناك تكافل مفتوح بين الأغنياء والفقراء فى المجتمع، يحبب الله فيه بكل وسائل التحبيب، ويحث عليه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، حتى يصبح التكافل سمة مميزة للمجتمع المسلم، فللجار على جاره حقوق، ولفقراء الحى على أغنيائه حقوق، ولفقراء الأمة كلها على أغنيائها حقوق.

ومن أجمل ما ورد فى التاريخ - ومن أعظمه كذلك - أن المجتمع المسلم وصل أيام عمر بن عبد العزيز - وإن لفترة قصيرة - إلى صورته المثالية بعد التمكين فى الأرض، فلم يعد فيه فقراء!

جاء فى كتاب الأموال لأبى عبيد:

«يقول يحيى بن سعيد: بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاجتبيتها، فطلبت فقراء أعطيها لهم فلم أجد، فقد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس، فاشتريت بها عبيدًا فأعتقتهم».

وجاء فيه (ص ٣٥٧، ٣٥٨):

«كتب عمر بن عبد العزيز إلى عبد الحميد بن عبد الرحمن - وهو بالعراق - أن أخرج للناس أعطياتهم. فكتب إليه عبد الحميد: إنى قد أخرجت للناس أعطياتهم وقد بقى فى بيت مال المسلمين مال. فكتب إليه أن انظر كل بكر ليس له مال فشاء أن تزوجه فزوجه وأصدق عنه، فكتب إليه: إنى قد زوجت كل من وجدت، وقد بقى

فى بيت المسلمين مال. فكتب إليه بعد مخرج هذا: أن انظر من كانت عليه جزية فضعف عن أرضه فأسلفه ما يقوى به على أرضه، فإنا لا نريدهم لعام ولا لعامين.

وجاء فيه (ص ٧٣٨):

«كتب عمر بن عبد العزيز: أن اقضوا عن الغارمين، فكتب إليه الليث بن سعد: إنا نجد الرجل له المسكن والخادم والفرس والأثاث. فكتب عمر: إنه لا بد للمرء المسلم من مسكن يسكنه، وخادم يكفيه مهنته، وفرس يجاهد عليه عدوه، ومن أن يكون له الأثاث فى بيته! نعم! فاقضوا عنه فإنه غارم!».

* * *

الركيزة الرابعة للعدل الاقتصادى فى الإسلام هى التفتيت الدائم للثروات عن طريق فريضة المواريث، وإعادة توزيعها بنسب جديدة على الدوام، لكى لا تتكدس فى يد فئة قليلة من الناس فيقع الظلم فى المجتمع. فحيثما تكدست الثروة فى جانب، وقعت ألوان من الفساد الاقتصادى والاجتماعى فى جانب آخر. والقرآن يشير إلى هذا الأمر فى قوله تعالى: ﴿كَيْ لا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ (الحشر: من آية ٧) بما يوحى بأن الله لا يحب تكدس الأموال فى أيدى الأغنياء، ويحب أن يكون متداولا فى أيدى أكبر عدد من الناس. وفريضة المواريث تقوم من جانبها بهذا التوزيع بصفة مستمرة، فمهما كانت ثروة إنسان فى أثناء حياته، فهو لا بد راحل عن هذه الدنيا يومًا من الأيام، ولا بد من تقسيم ثروته بين أصحاب الأنصبة الذين حددهم الله، فلا يستمر التكدس فى اتجاه واحد، وإنما توجد على الدوام نسب جديدة يتحرك بها المال من يد إلى يد.

* * *

تلك لمحة سريعة تبين عظمة المنهج الربانى بالنسبة لكل الأنظمة التى عرفتها البشرية، وبخاصة الرأسمالية الربوية التى تتبناها ديمقراطية الغرب، ثم تزعم أنها أعدل نظام وصل إليه البشر فى التاريخ.

وأبرز الفروق بين المنهج الربانى وتلك الديمقراطية الرأسمالية الربوية أن الأغنياء

فى الإسلام لا يشرعون، لأن التشريع هو حق الله الخالص، وليس للبشر إلا اتباع ما أنزل الله.

وقد أوضحنا أهمية هذا الأمر فى الفصل السابق، وبينا أن الذى يحكم فى الحقيقة فى الديمقراطية الغربية هو رأس المال، ويسير الحياة كلها لصالحه، من وراء المسرحية الجميلة التى تخيِّل لرجل الشارع أنه هو الذى يحكم، فإذا أدركنا أن المنهج الربانى يكف يد البشر عن التشريع، وأن المتغيرات التى أباح الله فيها للبشر الاجتهاد محكومة بالثوابت التى ثبتها الله، يتبين لنا الفارق الأعظم بين العدل الاقتصادى فى الإسلام الذى يمنع رأس المال أن تكون له سلطة التشريع لصالحه على حساب مصالح الناس (وهو ما يحدث فى واقع الأرض) وبين الظلم الذى تمارسه الديمقراطية الرأسمالية الربوية، وتسميه «الاقتصاد الحر»!

كما أن هناك فارقًا رئيسيًا آخر بين منهج الإسلام الاقتصادى ومناهج البشر، سواء منها ما كان يلغى حق الملكية الفردية (كما كانت الشيوعية تفعل) وما يبيح الملكية الفردية بلا ضوابط (وهو ما يحدث فى الغرب الديمقراطى الرأسمالى).

فحق الملكية الفردية واضح تمام الوضوح فى الإسلام، والشريعة الربانية تحميه بتحريم الغش والغصب والسرقة، ولكن الإسلام فى المقابل يضع الضوابط التى تمنع الملكية الفردية من إيقاع الظلم على الآخرين، وتوزع المغانم والمغارم توزيعًا عادلا بين الناس.

وقد أشرنا فى الفقرة السابقة إلى الضابط الأول، وهو منع رأس المال من التشريع، ونشير هنا إلى الضابط النوعى بالنسبة لرأس المال.

فرأس المال فى الديمقراطية الرأسمالية الغربية هدفه الأول والأكبر أن يربح، وهو يضع فى التشريع الذى يسيطر عليه كل الإمكانيات التى تتيح له الحصول على الربح، وفى مقدمتها إدارة العملية الاقتصادية كلها بالربا كما أسلفنا، وكفى بها سوأة تلطخ أنظمتهم، وتنزع عنها دعاوى العدل المزعومة.

ومع ذلك فليس الربا هو السوأة الوحيدة ولا الكبرى فى النظام الرأسمالى

«الحر!». فشهوة الربح لا تقف عند حد، ولا تبالى بإفساد أخلاق الناس ما دام الفساد فى الأرض يتيح مزيداً من فرص الربح لرأس المال!

فإبعاد خاطر الحياة الآخرة عن أفكار الناس وقلوبهم، وجعل الدنيا أكبر همهم ومدار اجتهادهم يسهِّل لرأس المال غزو تلك القلوب بشتى المغريات التى تزين للناس متاع الحياة الدنيا وزينتها، وكلها تصب فى النهاية لصالح رءوس الأموال!

وجنون «الموضة» أحد تلك المغريات التى تفسد عقول الناس وقلوبهم، وفى الوقت ذاته تدفع بالمليارات إلى جيوب فئات من أصحاب رءوس الأموال، ما كانت لتصل إلى جيوبهم لو أن الناس كانوا يعيشون لأهداف جادة، يرقبون فيها الله، ويتجسم فى حسهم اليوم الآخر، بما فيه من حشر وحساب، وثواب وعقاب.

وليست «الموضة» خاصة بأزياء النساء كما قد يتبادر لأول وهلة. وانظر إلى جنون «الموضة» فى عالم السيارات - مثلاً - فلو أن الناس لا يلهيهم متاع الأرض، ولا يفتنهم عن اليوم الآخر، فما الفرق الجوهرى بين سيارة العام الماضى وسيارة هذا العام؟ وفيم يتفنن المهندسون و«المبدعون» لإحداث التغييرات التى تغرى الناس بالاستغناء عن السيارة القديمة وحيازة السيارة الجديدة؟ (هذا فضلا عما ابتكره أصحاب رءوس الأموال من فنون الغش منذ الحرب العالمية الثانية من إنتاج أدوات محدودة الصلاحية، تجبر الناس إجباراً على تغييرها باستمرار، لكى تربح المصانع المنتجة وتضمن دوام الرواج، حتى الأدوية يراعى فيها ألا تكون حاسمة فى القضاء على المرض، لتضمن مصانع الأدوية دوام الإنتاج ودوام التوزيع ودوام الأرباح!).

ثم نشر الترف فى حياة الناس بحجة الترويح عن النفوس، وتقليل الجهد المبذول، وإتاحة الفرص لمزيد من الراحة، ومزيد من الاستمتاع!

أهو لوجه الله؟ أم لوجه الشيطان؟

لا ينكر أحد ما تقوم به الصناعة، وما تقوم به التقنية من خدمات جليلة للبشر.

ولو أن الجهود العلمية والجهود التقنية اكتفت بما تقدم للبشر من خدمات حقيقية، واكتفى رأس المال بما يجنيه من أرباح حلال من وراء تلك الجهود، لتغير كثير من ملامح الفساد الذى تعج به الأرض اليوم، وتحميه الديمقراطية الرأسمالية الربوية بما تشرعه من القوانين التى يوجهها ـ بطريق مباشر أو غير مباشر ـ أصحاب «المصلحة» فى إشاعة هذا الفساد.

* * *

الملكية الفردية مصونة فى المنهج الربانى، يحميها التشريع المنزل من عند الله، ولكنه فى الوقت ذاته يمنعها من الفساد والإفساد، بالضوابط التى يضعها لينمو فى داخلها رأس المال، وبتوجيه الناس فى الوقت ذاته إلى عبادة الله، والتقرب إليه بالطاعات، ومراقبته فى الصغيرة والكبيرة، وجعل اليوم الآخر حاضراً على الدوام فى قلوب الناس.

ولا نقول إن الناس فى ظل المنهج الربانى يصبحون ملائكة لا يصدر عنهم إلا الخير! كلا! فالبشر هم البشر، لا تزايلهم بشريتهم. ولكن هناك فرقا واضحًا بين المجتمع الملتزم بما جاء من عند الله مهما حدث فيه من انحرافات، والمجتمع المتفلت من الضوابط، المنجرف وراء الشهوات، ومن بينها شهوة الربح من كل سبيل مهما أغضب الله، بله التزام ما يغضب الله وجعله من أصول الحياة!

إن المنهج الربانى منهج متكامل، العقيدة فيه والشريعة موجهتان معًا لتكوين «الإنسان الصالح» الذى يعيش حياة صالحة فى الأرض، وينعم بنعيم الله فى الآخرة.

﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص: ٧٧).

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٧).

وكل جزئية فى هذا المنهج تأخذ مكانها فيه، متناسقة ومتكاملة مع بقية الأجزاء، العقيدة والسياسة والاقتصاد والأخلاق.. كل منها يؤدى دوره، وفى النهاية تلتقى جميعها فى كلٍّ متكامل عنوانه: «عبادة الله» التى تشمل كل مجالات الحياة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ﴾ (الأنعام: ١٦٢، ١٦٣).

العدل الاجتماعى فى الإسلام

«أنتم بنو آدم وآدم من تراب» (رواه الترمذى وأبو داود).

«المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم» (رواه أبو داود).

«ألا لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى» (رواه الهيثمى فى مجمع الزوائد).

«إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» (رواه مسلم).

«القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له» (من خطبة أبى بكر رضى الله عنه يوم توليته).

❊ ❊ ❊

تلك - وأمثالها - هى ركائز العدل الاجتماعى فى الإسلام.

ليس فى الإسلام «طبقة» لها امتيازات تميزها على «طبقة» أخرى. هناك فى المجتمع الإسلامى أغنياء وفقراء كما هو موجود فى كل مجتمع على الأرض، ولكن لا توجد فى الإسلام «طبقة» بالمعنى الاصطلاحى للطبقة، لسبب بسيط واضح، هو أن البشر فى الإسلام لا يشرعون، ومن ثم لا يترتب على كونهم أغنياء أو فقراء أى فارق فى التشريع (مثل ما يحدث فى كل نظام يشرع فيه البشر، فيشرع المالكون لصالح أنفسهم على حساب غير المالكين).

هذه الحقيقة الكبرى، وهى أن المشرع فى الإسلام هو الله وليس البشر، لها تأثيرها على كل مجالات الحياة: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية.. إلخ.

وقد لا تتضح للوهلة الأولى كل آثار هذه الحقيقة فى مجالات الحياة المختلفة، وقد تبدو واضحة فى مجال التشريع أكثر منها فى المجالات الأخرى، ولكن الحقيقة أنه كلما تبحرنا فى تتبع مجالات الحياة وجدنا أنفسنا أمام هذه الحقيقة الكبرى تواجهنا فى كل مرة، تقول - بلسان الحال - العدل هنا، لأنه من عند الله.

حقيقة تنكرها - أو لا تأبه بها - كل جاهلية من جاهليات التاريخ، يتولى البشر فيها التشريع لأنفسهم بدلا من الالتزام بشرع الله، يستوى فى ذلك الجاهليات التاريخية والجاهلية المعاصرة.

فحيثما أله الإنسان نفسه بدلا من الله، وادعى لنفسه حق التشريع بدلاً من الله، وقع الظلم فى مجالات الحياة المختلفة بمقدار ما يبعد تشريع البشر عن شرع الله.

والجاهلية المعاصرة فى الغرب هى أكبر جاهلية فى التاريخ ألهت الإنسان بدلاً من الله، ولذلك: ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ** ﴾ (الروم: ٤١) والظهور هنا بمعنى التمكن والانتشار.

* * *

يقول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: «أنتم بنو آدم وآدم من تراب» (الترمذى وأبو داود).

ولا يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه المقولة تحقير الإنسان، فهذا المخلوق الذى خلقه الله من طين الأرض: ﴿ **إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ** ﴾ (ص: ٧١) هو ذاته الذى كرمه الله وفضله على كثير ممن خلق: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾ (الإسراء: ٧٠).

إنما هى قولة موجهة لمن يطغى فى الأرض بغير الحق، تذكره بمنشئه، لكى يطامن من كبريائه الزائفة ويتواضع لله.

إن الإنسان يكون فى أحسن حالاته حين يدرك مكانته فى الوجود على حقيقتها: عبد لله، وسيد فى الأرض، مسخر له ما فى السموات وما فى الأرض:

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ (مريم: ٩٣).

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ (الجاثية: ١٣).

لا عبوديته لله تنفى سيادته فى الأرض، ولا سيادته فى الأرض تنفى عبوديته لله. وحين يدرك هذه الحقيقة، ويتمثلها فى واقع حياته يكون هو الإنسان الراشد الذى عنته الآيتان الكريمتان فى سورة الحجرات: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ۝٧ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحجرات: ٧، ٨).

إنما ينتكس الإنسان فى حالتين متقابلتين: حين يستضعفه الطغاة فيعبِّدونه لأنفسهم، ويرضى بطغيانهم، وحين يطغى فيجعل من نفسه ندًا لله، أو يتخذ من نفسه إلهًا بدلا من الله، فيشرع من دون الله، ويضع لنفسه المعايير من دون الله، وهؤلاء وأولئك هم الذين استضعفوا والذين استكبروا الذين يشير إليهم القرآن فى كثير من آياته التى تصف حال أهل الجاهليات ومآلهم فى الآخرة:

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾ (إبراهيم: ٢١).

﴿ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ۝٣١ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا

لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (سبأ: ٣١ـ٣٣).

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴾ (غافر: ٤٧، ٤٨).

وفى كل جاهلية يوجد قوم يشرعون، وقوم يخضعون لما يشرعه المستكبرون، وليست الجاهلية المعاصرة استثناء من هذا العموم إلا فى شىء واحد، هى أنها توهم من يسمونه «رجل الشارع» أنه هو الذى يشرع، وهو الذى يحكم، فيصدق ما يوهمونه إياه! بينما الذى يحكم فى الحقيقة هو رأس المال، وهو الذى يسيّر الأمور كلها على هواه!

فى الإسلام وحده يكون الإنسان فى أحسن أوضاعه، لأنه يكون فى مكانه الصحيح من حقائق الأشياء: عبدٌ لله، وسيد فى الأرض بما منحه الله من السيادة فيها، وسخر له ما فى السماوات والأرض ليقوم بدور الخلافة التى خلقه الله من أجلها يوم قال للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً.. ﴾ (البقرة: ٣٠) ومنحه الأدوات التى تعينه على القيام بها: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨).

والناس فى الجاهلية المعاصرة هم أولى الناس أن يدركوا هذه الحقيقة الغائبة عن حسهم، ويدركوا فى الوقت ذاته أنهم لا يجدونها إلا فى الإسلام، وأنها أعظم ما فى الإسلام.

* * *

يقـول الرسـول صلى الله عليـه وسلم: «المسلمـون تتكافـأ دمـاؤهـم، ويسـعى بذمتهم أدناهـم» (أبو داود).

كلهم متساوون فى ميزان الإسلام، لا أفضلية لجنس، ولا عرق، ولا لون، ولا لغة ولا مكان، والأفضلية الوحيدة هى للتقوى: «لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى». ولم يكن هذا ـ حين طبق الإسلام كما أنزله الله ـ شعارات تطلق فى الهواء لا رصيد لها فى عالم الواقع، إنما كانت واقعا ملموسا يراه الناس أمام أعينهم. يقول عمر رضى الله عنه: «أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا»! ومن الذى يشير إليه عمر رضى الله عنه؟ إنه بلال، العبد الحبشى الأسود! فعمر، العـربى القـرشى، فى الذؤابة من قـريش، يقـول عن بلال رضى الله عنه «سيـدنا بلال»! فهل بعد ذلك قمة فى العدل الاجتماعى؟ وهل حدث مثل ذلك فى التاريخ كله إلا فى الإسلام يوم طبق كما أنزله الله؟

تتكافـأ دمـاؤهـم، ويسعى بذمتـهم أدناهم. يتكلم نيابة عن الأمة كلهـا، ويعقد المواثيق باسمـها ويبرم الأمور حين تفوضه الأمة لذلك، لا يقـعد به نسبه ولا لون جلده، ولا كـونه فقيراً، ولا شىء من تلك الاعتبارات كلها التى تحدد مكانة الناس فى الجاهليات.

ومن كان على رأس الجيش الذى جيّشه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوفى عليه الصلاة والسلام قبل أن ينطلق الجيش، فأنفذه أبو بكر رضى الله عنه، وعلى رأسه ذات القائد الذى عينه رسول الله صلى الله عليـه وسلم؟ إنه أسـامـة بن زيد رضى الله عنه، الذى رفعته تقوى الله إلى مرتبة القيادة على كبراء الصحابة رضى الله عنهم. وأبو بكر رضى الله عنه، وهو خليفـة المسلمين، يستـأذنه فى أن يبقى عمر ـ أحد جنود ذلك الجيش ـ ليعين أبا بكر رضى الله فى أمور الخلافة، فيقول له: إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل!!

إنها عظمة لم تحدث فى التاريخ إلا فى الإسلام، يوم طبق كما أنزله الله!

* * *

ويقول الخليفة الأول رضى الله عنه: القوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له.

إنها عظمة الإسلام فى مجال آخر.. مجال القضاء.. مجال حقوق الناس بعضهم إزاء بعض.

ومن قبل قال الرسول صلى الله عليه وسلم حين أرسلوا إليه أسامة يتشفع فى المرأة الشريفة التى سرقت: «أتشفعون فى حد من حدود الله؟ إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد. وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها.. (مسلم).

وفى بعض الجاهليات التى تزعم أنها أرقى ما وصلت إليه البشرية، يسرق أصحاب الملايين فتحجب عنهم ملايينهم سطوة القانون، لأنهم يعرفون كيف يحتالون عليها ويسكتون ألسنة من ينبه إليها، إلا أن يرتكب صاحب الملايين حماقة مكشوفة لا يمكن المداراة عليها، فيعزل من منصبه إن كان ذا منصب (أو يضغط عليه كى يستقيل من منصبه) وتبقى له ملايينه التى سرقها.. لا تمس فى معظم الأحوال! بينما يطبق القانون تطبيقا صارما على اللص الذى يسرق دريهمات! وتنشر الصحف الأخبار تحت عنوان «فضيحة كذا..» وقد يتوارى «المفضوحون» عن العيون فترة حتى تنسى فضيحتهم، ثم يعودون!

* * *

فى المجتمع الذى يطبق فيه الإسلام كما أنزله الله يقف الناس كلهم أمام شرع الله على قدم المساواة. وخذ مثالا من واقع التاريخ.

افتقد على رضى الله عنه درعه فوجدها عند يهودى، فذهب به إلى قاضيه شريح، فقدم دعواه، فقال: الدرع درعى ولم أبع ولم أهب. فالتفت القاضى إلى اليهودى فقال: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ قال: الدرع درعى، وما أمير المؤمنين عندى بكاذب (على طريقتهم فى إمساك العصا من الوسط!). فقال شريح: يا أمير المؤمنين هل من بينة؟ قال على رضى الله عنه: صدق شريح! مالى بينة! فحكم شريح بالدرع لليهودى (على مبدإ أن الحيازة سند الملكية!).

فأخذ اليهودى الدرع، ومشى خطوات ثم عاد يقول: أمير المؤمنين يقاضينى إلى قاضيه فيحكم عليه! ألا إنها أخلاق أنبياء! أشهد ألا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله! الدرع درعك يا أمير المؤمنين، خرجت من بعيرك الأورق فأخذتها. فيقول على رضى الله عنه: أما إذا أسلمت فهى لك!

وليست العبرة فقط فى كون على رضى الله عنه، وهو أمير المؤمنين، وهو صاحب السلطان، لم يستول على الدرع بالقوة، وهو على يقين من أنها ملكه، وأن اليهودى قد سرقها وهى ليست له، وليست العبرة كذلك فى كون على رضى الله عنه لجأ إلى القضاء ليسترد حقه فقضى القاضى ضده لأنه لا يحمل بينة على دعواه (مع يقين القاضى فى دخيلة نفسه أن عليا صادق فى دعواه)، وإنما يضاف إلى ذلك كله كون السارق فى هذه الحالة يهوديا، وليس مسلما.. وهنا موضع من العظمة لا يدانيه موضع! فاليهود كادوا للإسلام ما كادوا، وتآمروا ضده ما تآمروا، وبلغ الأمر إلى دس السم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ومحاولة قتله بإلقاء الحجر عليه من أعلى (لولا أن جاءه جبريل عليه السلام فقام قبل تنفيذ الجريمة)، ومع ذلك التاريخ الأسود، لا يقدم على رضى الله عنه على الانتقام من اليهودى، ولا يستخدم القوة لاسترداد حق هو على يقين منه، إنما يلجأ إلى القضاء، ومع ذلك لا يسانده القضاء ولا يرد له حقه المغتصب فيرضى، ويقول: صدق شريح، مالى بينة!

قارن هذا بما يحدث فى «جوانتنامو» مع المسلمين على دعوى أن المعتقلين منهم هناك - ربما - يكونون قد شاركوا من قريب أو من بعيد فى جريمة تحوطها شبهات التدبير المتعمد من كل جانب! وانظر وسائل التحقيق معهم لاستخلاص الاعترافات منهم، وإسقاط حقهم فى تنصيب محامين عنهم، أو استئناف الأحكام التى تصدر فى حقهم!

❊ ❊ ❊

وقد أوصى الإسلام بإحسان معاملة أهل الكتاب ما داموا لا يحاربون الإسلام ولا يكيدون له. قال تعالى: ﴿ **لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ**

يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ (الممتحنة : ٨) وقال تعالى : ﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (العنكبوت : ٤٦).

بل وسع الله دائرة الود بينهم إلى الحد الذى جعلها علاقة حميمة لا مجرد «تعايش» سلمى بين فريقين لا تربط بينهما روابط، فقال تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ (المائدة : ٥)

ولذلك عاش أهل الكتاب فى ظل الدولة الإسلامية آمنين مطمئنين لا يحجر أحد على نشاطهم، سواء معتقداتهم ودور عبادتهم أو نشاطهم الاقتصادى أو الاجتماعى، ولا يتدخل أحد فى شئونهم الخاصة، مع كون عبادتهم ومعتقداتهم تخالف عبادة المسلمين ومعتقداتهم مخالفة واضحة، ولا يفرض عليهم أحد أن يتركوا شيئا من تقاليدهم ولا طرائق حياتهم ليندمجوا فى المجتمع المسلم.

ويذكر التاريخ أن اليهود الذين كان نصارى أوربا يضطهدونهم اضطهادا شديدا على أساس اعتقادهم أنهم صلبوا المسيح، لم يكن لهم ملاذ آمن إلا فى ظل الدولة الإسلامية فى الأندلس، ولما طرد المسلمون من الأندلس، بعد المذابح التى أقامها لهم النصارى نزح معهم اليهود إلى المغرب حيث لا يزالون يعيشون حتى اليوم.

قارن هذا بما تفعله أوربا الصليبية مع المسلمات المحجبات - والحجاب للمرأة المسلمة جزء من دينها وعقيدتها - وكيف تتعالى الصيحات فى أوربا بطرد المسلمين أو إجبارهم على ترك عاداتهم وتقاليدهم ليندمجوا فى المجتمع الغربى.

وانظر إلى «العدل» الذى توفره ديمقراطية الغرب للبشرية ! !

فيما بين الجنسين

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ (آل عمران : ١٩٥).

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل : ٩٧).

المساواة بين الجنسين فى الإنسانية واضحة غاية الوضوح فى كتاب الله. وربما كان ما نزل فى القرآن فى هذه القضية أول تقرير عرفته البشرية لقضية المساواة بين الجنسين فى الإنسانية، وذلك قبل أن تفىء أوربا إلى تلك القضية باثنى عشر قرنا على الأقل، حيث كان الفلاسفة و«المفكرون» فى أوربا يتساءلون: هل للمرأة روح أم ليس لها روح؟! وإذا كان لها روح فهل هى روح حيوانية أم روح إنسانية؟ وإن كانت روحا إنسانية فهل هى من ذات درجة الرجل أم من درجة أقل؟!

قبل ذلك بقرون كان الله قد بيّن للناس فى كتابه المنزل أنهما من أصل واحد، ومن جنس واحد، وعلى درجة واحدة من الإنسانية:

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ﴾ (النساء : ١).

وكلفهما تكليفا واحدا: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ (النساء : ٣٦).

ووعدهما على القيام بهذه المهمة وعدا واحدا متساويا لكل منهما: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (النساء: ١٢٤).

وألزمهما إلزاما واحدا متساويا: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ (النور: ٣٠) ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ (النور: ٣١).

وقرر عليهما عقوبة واحدة متساوية على العمل الواحد:

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣٨).

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾[1] (النور: ٢).

والجاهليات القديمة كلها كانت تشدد النكير على المرأة التى ترتكب الخطيئة بينما تغض الطرف عن الرجل حين يرتكب الخطيئة ذاتها، على أساس أن المرأة الزانية تحمل فى جسدها آثار جريمتها وتجلب العار لأهلها، وتدلس الأنساب، والرجل لا يحدث منه مثل ذلك. وربما كان شيء من هذه الاعتبارات له دخل فى تقديم الزانية على الزانى فى سورة النور، بينما يأتى ذكر الرجل أولا فى جميع المناسبات الأخرى سواء كان المقصود المدح أو الذم: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ﴾ (التوبة: ٦٧) ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

---

(١) سنتكلم عن حكمة فرض العقوبات بالصورة التى فرضها الله فى الفصل القادم.

وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة: ٧١، ٧٢).

نعم. ولكن عدالة الله تأبى أن يكون للمرأة عقوبة أشد من الرجل على العمل الواحد، أو عقوبة أقل على الرجل على ذات العمل، لأن دافع الجريمة واحد فى نفس الرجل والمرأة، والعقوبة مفروضة على الدافع بصرف النظر عما يترتب من آثار لا دخل للإرادة فيها.

أما الجاهلية المعاصرة فى الغرب، ومن ينعق نعيقها ممن يحملون أسماء إسلامية من الرجال والنساء فى بلادنا فيقولون إن تفريق المجتمعات فى العقوبة بين الرجل والمرأة ظلم يجب أن يرفع، وذلك بإعطاء الجنسين حقا متساويا فى الفساد، ورفع العقوبة عن كليهما تحقيقا للعدل!!

حقا إن التفرقة فى العقوبة على العمل الواحد ظلم يجب أن يرفع. أما أن ترفع العقوبة عن المفسدين، ليتساووا فى حق الفساد، فلم يقل به أحد فى التاريخ، إلا فى الجاهلية المعاصرة التى يقودها، ويؤصل الفساد فى كيانها شعب الشيطان!

* * *

بعد تقرير المساواة بين الجنسين فى هذه المجالات كلها، التى تشمل المنشأ والمصير، فقد فرق الله بين الجنسين فى الوظائف، فخص المرأة بوظائف لم يعدّ الرجل لها، ولا يستطيع - بتكوينه - أن يقوم بها، وخص الرجل بوظائف لم تعدّ المرأة لها. وزعمت الجاهلية المعاصرة أنها تستطيع أن تقوم بها لو أعطيت فرصة مساوية لفرصة الرجل، ويكذّب العلم جانبا كبيرا من هذا الزعم، وتكذّب بقيته تجربة أكثر من قرن من الزمان فى الغرب، وفى الشرق الذى يسيطر عليه الغرب بمفاهيمه وأفكاره.

وقبل أن نفصل الحديث فى هذه الوظائف، وفى الحكمة الربانية فى جعل التكوين الحيوى - البيولوجى والفسيولوجى - لكل من الرجل والمرأة مناسبا لهذه الوظائف - ولله الحكمة البالغة - نقول ابتداء إن اختلاف الوظائف لا علاقة له

بالمساواة فى الإنسانية مهما ترتب عليه من فروق فى واقع الحياة. فالعامل الذى يعمل بيديه يفترق فى الوظيفة افتراقا واضحا عن المفكر الذى يعالج الأفكار، وعن الطبيب الذى يقوم بمعالجة المرضى وعن المهندس الذى يشرف على المشروعات العمرانية، وعن الوزير الذى يشارك فى أمور الحكم، وعن الرئيس الذى يقوم على رأس الدولة، فهل هذا كله يجعل العامل أقل إنسانية من كل هؤلاء؟ وهل ينبغى أن يكون كل الناس أطباء أو مهندسين أو مفكرين أو وزراء أو رؤساء ليتساووا فى الإنسانية؟! بعبارة أخرى: هل الوظيفة هى التى تحدد مدى إنسانية الإنسان؟!

وقد ضربنا المثل من عالم الرجال أولا لتتضح الحقيقة خارج الحساسية القائمة اليوم فيما بين الجنسين حول وظيفة كل منهما التى خلق الله كلا منهما ليؤديها، وخارج اللوثة التى أصابت كثيرا من الناس فى الشرق والغرب حول «المساواة التامة فى جميع المجالات».

لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يكون الجنسان متكاملين - لا متماثلين - ليتكون من مجموعهما كيان متآلف متناسق متحاب متواد متراحم اسمه الأسرة، وجعل ذلك من آياته سبحانه وتعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (الروم: ٢١).

وفى داخل هذا الكيان المتآلف المتناسق المتحاب المتواد المتراحم، وزع الخالق - سبحانه - الوظائف، فاختص المرأة بالحمل والولادة والإرضاع وحضانة النشء حتى يستقيم عوده، وأودع فى كيانها ما يناسب هذه الوظائف كلها، فى كل ذرة من كيانها، فى تكوين جسدها، وفى عواطفها، وفى فكرها، وفى نظرتها إلى كل ما يدور حولها من أمور. ولا يعنى ذلك بطبيعة الحال أن المرأة غير الرجل فى كل شىء، فهناك قدر مشترك فى أصل الخلقة يتشارك فيه الرجل والمرأة بأقدار متساوية أو بنسب مختلفة، إنما نتحدث عن جوانب التخصص التى فطر الله كلا من الجنسين عليها.

وينبغى هنا أن نلفت النظر إلى أمر آخر، يوقع اللبس فى أذهان بعض الناس،

وهو وجود نساء يقمن بما تخصص فيه الرجال على أكمل وجه، ويضربون المثل بالمرأة الحديدية - ثاتشر - وغيرها ممن صرن رئيسات فى بلادهن، ويقولون: انظروا! ها هى ذى المرأة قد قامت بكل ما يختص به الرجل، فتساوت معه، بل تفوقت عليه فى بعض الأحيان!

وقديما قال المناطقة إن الاستثناء يؤكد القاعدة ولا ينفيها!

إن التعليم فى الغرب جرى - لقرن كامل - متماثلا للطفل والطفلة، والفتى والفتاة، والشاب والشابة، فكم «ثاتشر» خرجت إلى الوجود رغم إتاحة الفرصة كاملة للجنسين أن يتلقيا تعليما واحدا، وتدريبا واحدا، وتوجيها واحدا؟

ليست ثاتشر وحيدة فى التاريخ البشرى، فقد سبقتها حتشبسوت وشجرة الدر، وأخريات، لكن هل غيرت هذه الحالات الاستثنائية القاعدة العامة لملايين الملايين من النساء خلال التاريخ؟

وفى المقابل يوجد رجال قد يشاركون النساء فى سرعة تبدلهم من حال إلى نقيضه فى ثوان معدودات، أو فى تحكم عواطفهم - لا عقولهم ولا منطقهم - فى الحكم على الأمور، أو فى اتخاذ المواقف إزاء الأحداث، فهل هذه الحالات الاستثنائية تلغى القاعدة العامة، أن الرجال - فى عمومهم - أقل استجابة لعواطفهم، وأبطأ تحركا بانفعالاتهم، وأكثر ميلا إلى التروى فى اتخاذ القرار بناء على وزن الأمور بميزان لا تحركه العاطفة؟

إن سرعة الاستجابة العاطفية للموقف قد جعلها الله فى كيان الأم لتستجيب لمطالب طفلها استجابة آنية - عاطفية لا فكرية - بينما لو وكل الأمر إلى الرجل، وظل يفكر فى كل مرة: هل يستجيب أم لا يستجيب؟ وأيهما الأصوب والأليق؟ لأصاب الطفل من هذا الأمر أذى كثير! بينما الأم - بعواطفها - تستجيب تلقائيا دون حاجة إلى تفكير!

كذلك.. لو أن أمور الدولة، والمجتمع، والمعاش، ومواجهة الأزمات والصعاب، خضعت للتقلب السريع فى عواطف المرأة فكيف تصير الأمور؟!

وكل هذا لا ينفى القدر المشترك بين الجنسين، بنسب متماثلة أو مختلفة. إنما تجرى الأمور فى الحياة بمقتضى الأمر الغالب، وحين يوجد استثناء فإنه يفرض نفسه على الموقف، ولكنه لا يغير القاعدة!

* * *

تلوك الجاهلية المعاصرة كلاما كثيرًا حول اختلاف المرأة عن الرجل فى الميراث فى شرع الله.

وما بنا أن نبرز المفارقة القائمة فى دعاوى هذه الجاهلية حول هذه القضية بينما كثير من «الديمقراطيات» ما تزال تعطى المرأة راتبا أقل من راتب الرجل على العمل الواحد، بحجج مختلفة. ولكنا نقول فقط إن التفرقة فى شرع الله جاءت فى المال الموروث فقط، ولا علاقة لها بالمال المكتسب، الذى لا تفريق فيه بين الرجل والمرأة فى شرع الله. أما التفرقة فى المال الموروث فحكمتها اختلاف التكاليف. فالرجل - فى شرع الله - هو المكلف بالإنفاق، فينفق على الأسرة - وفيها الزوجة - بينما هى ترث نصف الرجل ولا تكلف الإنفاق على أحد - إلا تطوعا - مهما كانت ثروتها.

وأما التفرقة فى الشهادة الواردة فى آية الدين فى سورة البقرة: ﴿**فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ**﴾ (البقرة: ٢٨٢)، فقد ذكرت الآية سبب التفرقة، وأنها لضمانة الحقوق بين الناس، بحيث لا تتأثر بظروف عارضة قد تغلب على المرأة فتنسى أو «تضل» كما ذكرت الآية فيضيع الحق على صاحب الحق.

وأما التفرقة فى دية القتلى، فالدية ليس المنظور فيها إلى درجة «إنسانية» القتيل، حتى يقال إن إنسانية المرأة نصف إنسانية الرجل فى شرع الله، وقد سبق بيان أن كتاب الله قد ساوى مساواة واضحة مؤكدة بين إنسانية الرجل وإنسانية المرأة: ﴿**بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ**﴾ ﴿**وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا**﴾. إنما هى تعويض مالى عن فقدان شخص كان يقوم بتكاليف معينة فى أثناء حياته - أو هو مهيأ للقيام بها - فالدية المقدمة لأهله تناسب ما كان الشخص القتيل مهيأ للقيام به، رجلا كان أو امرأة.

* * *

غاية الكلام أن الحكمة قائمة وواضحة فيما أنزل الله فى كتابه. أما اللوثة القائمة اليوم فى الجاهلية المعاصرة، التى تتبناها مؤتمرات «الأمم المتحدة» و«مواثيقها» و«قراراتها» فمن السهل تفسيرها، ولكن التفسير غير التبرير.

تفسيرها أن حركة «مناصرة المرأة وتمكينها من حقوقها» قامت فى الغرب ردَّ فعل للظلم الطاغى الذى كان يمارسه الرجل الغربى فى جاهليته الأولى. وكل ردِّ فعل فى التاريخ ربما أصلح ظلما واقعا ولكنه يشتط فى الجانب المقابل.. هكذا طبيعة «ردود الأفعال» إنها لا تكون منطقية ولا عقلانية مهما ادعت ذلك. إنما هى اندفاعة لا تقف أبدًا عند نقطة الوسط الموزونة، إنما تتخطاها - بوعى أو بغير وعى - انتقاما من حالة ظالمة كانت قائمة من قبل، فتستبدل خللا بخلل، وفسادا بفساد.

أما شرع الله فليس ردَّ فعل لشىء مما يحدث فى عالم البشر، إنما هو تنزيلٌ من رب العالمين لإقامة حياة البشر على القاعدة السليمة التى يعلم خالق البشر - وهو اللطيف الخبير - أنها هى التى تصلح لهذا المخلوق، الذى خلقه سبحانه بإرادته، ويعلم كل شىء عنه من قبل أن يخلقه! ﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ (الملك: ١٤) ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ** ﴾ (الحديد: ٢٥).

وحقيقة إن أقواما فى العالم الإسلامى لا يراعون ما أنزل الله، ويوقعون على المرأة من المظالم قريبا مما كان يحدث فى جاهلية العرب قبل الإسلام، فمن الملوم فى ذلك؟ وما العلاج؟

الإسلام - كما قلنا مرارا - حجة على الأمة، وليست الأمة - فى أى جيل من أجيالها - حجة على الإسلام، إن استقامت على أمر الله فهى مستقيمة، وإن انحرفت عنه فهى منحرفة، ويبقى دين الله كما أنزل، لا يصيبه من انحراف الأمة شىء.

والعلاج أن يعود الناس إلى الإسلام كما أنزله الله، ومهمة الدعاة أن يعيدوهم بالبيان الواضح والتربية الدءوب إلى ما أنزل الله كى تستقيم حياتهم على الأرض.

أما اللوثة التى وقع فيها الغرب، ويدعو إليها من يدعو ممن يحملون أسماء إسلامية، فقد أدت - بقصد من شياطين الأرض أو بغير قصد - أن أغرى الرجل المرأة بفك كل القيود، ليجدها إلى جواره سهلة المنال، ويستمتع بها المتاع الحرام، ويشركها معه فى المتاع الحرام!

ودين الله لم يتنزل ليجارى انحرافات البشر أو يربّت عليها. إنما نزل لتقويم ما انحرف فى حياة البشر، وشفاء المرضى مما أصابهم من الأمراض!

﴿ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس: ٥٧).

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ (الإسراء: ٨٢).

ونعرج تعريجة سريعة على المجتمع الأول فى صدر الإسلام، الذى عاش بالإسلام، وعاش للإسلام، فنقول إنه فى المجتمع الجاد، الذى يعيش الآفاق العليا، تنحسر المشاكل إلى أدنى صورة ممكنة، لأن الناس - وإن عانوا مشقة فى حياتهم - مشغولون عن ذواتهم بمحاولة تحقيق القيم العليا التى يؤمنون بها، ويعيشون من أجلها. فإذا هبطوا عن هذا الأفق الرفيع، وبدأت ذواتهم تشغلهم عن القيم التى كانوا يعيشون بها ويعيشون من أجلها، فهنا تتكاثر المشاكل التى تحتاج إلى حلول، وتشتجر الخصومات بين الناس!

فى ذلك المجتمع عاش الرجل وعاشت المرأة متعاونين متكاملين على الصورة التى أرادها الله من خلق الزوجين، والتى جعل فيها السكن والمودة والرحمة.

ولا نقول إنه لم تكن هناك مشكلات قط! فهذا لا يتحقق للناس فى الحياة الدنيا، التى جعلها الله دار ابتلاء وكدح ومشقة.

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ.. ﴾ (الإنسان: ٢).

﴿ يَأَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ ﴾ (الانشقاق: ٦).

﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ** ﴾ (البلد : ٤).

وفى مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم كانت تلك المرأة التى تجادل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زوجها وتشتكى إلى الله : ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ** ﴾ (المجادلة : ١).

ولكن هذه لم تكن السمة الغالبة على ذلك المجتمع، الذى عاش أزهى عصور البشرية.

بل إن المجتمع المسلم - على الرغم من كل ما أصابه من انحرافات - ظل قرونا طويلة أقل مجتمعات الأرض جرائم، وأقلها شرب خمر، وأقلها سقوطا فى الفاحشة، حتى غزاه الغرب، ونشر فيه جراثيمه، دون أن يمنحه العلاج!

والعلاج فى كتاب الله، وفى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

العلاج هو الإسلام كما أنزله الله.

الجريمة والعقاب فى المنهج الربانى

الإسلام اليوم فى الغربة الثانية التى أخبر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ، فطوبى للغرباء» (رواه مسلم).

وفى الغربة يغيب عن أذهان الناس كثير من ملامح العظمة فى هذا الدين العظيم وترتفع غوغائية الأعداء، فتنتشر الغبش حول حقائق الدين، فتتلقفه قلوب شاردة، تتطلع إلى يوم لا يكون فيه هذا الدين حاكمًا فى الأرض، وتتحير إزاءه قلوب أخرى تتساءل: أحق ما يقوله هؤلاء؟ وإن لم يكن حقًا فما الحقيقة؟

ومن بين ما تلوكه ألسنة الشاردين، الذين يتلقفون كل صيحة ترتفع فى أى مكان فى الأرض ضد دين الله المنزل، أن العقوبات التى يفرضها هذا الدين عقوبات همجية وحشية، إن تكن كانت مقبولة بالنسبة لبدو الصحراء فى ذلك الزمن السحيق، فلم تعد اليوم مقبولة وقد ارتقت البشرية، وخرجت من البداوة إلى الحضارة، ومن غلظ المشاعر إلى رقتها وسموها، وإذًا فلنبحث عن مصدر آخر نستمد منه أنظمتنا لنواكب ما وصلت إليه الأمم المتقدمة من الرقى، ولنؤمن بتاريخانية الإسلام، أى أنه كان مناسبًا لوقته، وأن الزمن قد تجاوزه!

* * *

يَغْفُلُ هؤلاء وهؤلاء عن حقيقة جوهرية فى هذا الدين: أن وجهته الأولى ليست إنزال العقوبة بالمجرم (وسنتحدث بعد قليل عن تغليظ تلك العقوبات) وإنما وجهته الأولى هى إزالة الأسباب التى تدعو الناس إلى ارتكاب الجريمة، لينشأ مجتمع

نظيف من الجريمة بالقدر الذى يمكن أن يرتفع إليه البشر، ثم - بعد ذلك - إن وجد من تسول له نفسه أن يرتكب الجريمة - وهو غير معذور - فلتكن شدة العقوبة التى تنتظره رادعًا له عن ارتكابها، فيفكر مرة ومرة قبل أن يقدم عليها.

إنه نظام متكامل، يأخذ الأمر من جميع أطرافه فى وقت واحد، فلا ينظر إلى جانب واحد ويهمل الجوانب الأخرى كما يحدث فى كثير من الأنظمة التى يستخدمها البشر بعيدًا عن المنهج الربانى، ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٠).

* * *

انظر إلى المجتمعات «الراقية».. وانظر إلى مستوى الجريمة فيها.

تقول إحصائياتهم - ومن مزاياهم الحقيقية التى تنقصنا فى فوضى حياتنا الحالية أن لديهم إحصائيات دقيقة عن كل أمر يحدث فى المجتمع - تقول إحصائياتهم إنه فى كل ثانية تمر تقع كذا حادثة سرقة. وكذا حادثة سطو، وكذا حادثة قتل، وكذا حادثة طريق تقع من مخمورين، وكذا حادثة اغتصاب وغير ذلك من الجرائم، فضلا عن العصابات المنظمة التى تتفنن فى الجريمة، وتتخذ آخر ما وصل إليه العلم من الوسائل لتنفيذ جرائمها.

وقد مر المجتمع الغربى بالنسبة للجريمة والعقاب فى أطوار مختلفة. ففى وقت من الأوقات - قبل الثورة الفرنسية - كان الفقر كارثة على أصحابه، فالفقير مظنّة ارتكاب الجرائم بسبب فقره، وهو دائمًا متهم حتى تثبت براءته، وبراءته صعبَة الإثبات ما دام فقيرًا. بينما كان رجال الإقطاع ورجال الدين يمتصون دماء الناس فى «شرعية!» كاملة، يؤهلهم لها سلطانهم!

وبعد الثورة الفرنسية تغير الحال كثيرًا. ورويدًا رويدًا صار للفرد من الشعب حقوق وضمانات، ولكن ظلت هناك ثغرة توجد دائمًا فى كل نظام يشرع فيه البشر لأنفسهم بدلاً من الله، فيطغى المالكون - بتشريعاتهم - على غير المالكين، ويرتكبون - بسلطانهم - جرائم لا يعاقبون عليها، بينما يعاقب الفقراء على جرائم أصغر بكثير!

ثم برز إلى الوجود على يد «فرويد» علم النفس التحليلى، الذى هو فى حقيقته علم تبرير الجريمة، فظلت النظرة إلى المجرم تتغير شيئًا فشيئًا حتى صار أحيانًا ينظر إليه على أنه مجنى عليه! وصارت العقوبات تخفف حتى أصبحت أحيانًا حوافز تغرى بالمزيد! . . وصارت المجتمعات كأنها معامل تفريخ للجريمة!

وفى ظل هذا الواقع ينظر بعض الناس إلى العقوبات الإسلامية فيرونها - بالنسبة لما يجرى فى الغرب - شيئًا بشعًا، همجيًا، وحشيًا، لا يمكن أن يطبق فى العالم المتحضر!

* * *

يسعى الإسلام كما ألمحنا سابقًا إلى وقاية المجتمع من الجريمة بالقدر الذى يمكن أن يصل إليه البشر فى الأرض، ومن المعلوم سلفًا أنه لا يمكن أن يخلو وجه الأرض تمامًا من الجريمة. وفى مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم، أرقى مجتمع عرفته البشرية فى تاريخها كله بشهادة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ** ﴾ (آل عمران: ١١٠) «خير القرون قرنى» (أخرجه الشيخان). . فى ذلك المجتمع وجد من يسرق ومن يزنى ومن يشرب الخمر. ولكنْ هناك فرق بين مجتمع تحدث فيه الجريمة شذوذًا يستنكر، ومجتمع تحدث فيه فى كل ثانية عدة جرائم!

وطريقة الإسلام فى وقاية المجتمع من الجريمة - بالقدر الذى يتيسر فى عالم البشر - ذات شعبتين، تتعاونان معًا، وتساند إحداهما الأخرى. الأولى بذر الإيمان بالله واليوم الآخر فى النفوس، وتعميق ذلك الإيمان بالتربية من ناحية، والتذكير الدائم من ناحية أخرى: ﴿ **وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الذاريات: ٥٥) والأخرى إيجاد الوسائل العملية التى تصرف الأسوياء من الناس عن التفكير فى ارتكاب الجريمة أصلا.

فإذا كان الدافع الأكبر للسرقة هو الجوع، وإذا كان الدافع الأكبر للزنا هو دفعة الغريزة، وإذا كان الدافع الأكبر للخمر - والمخدرات - هو محاولة الهروب من الواقع

السيئ الذى يعيشه الإنسان إلى واقع متخيل لا مشاكل فيه، وإذا كان الدافع الأكبر لجرائم القتل هو الانتقام من شخص معين، أو الحقد على المجتمع كله . .

إذا كانت هذه دوافع الجريمة فالإسلام يسعى - ابتداء - إلى إيجاد مجتمع تمتنع فيه هذه الدوافع من الوجود أصلا، أو تنحسر إلى أقصى درجة ممكنة إذا لم يكن ممكنا محوها من الوجود.

فبالنسبة للجوع - أى للفقر عمومًا - توجد فريضة الزكاة، ويوجد الإنفاق التطوعى الذى يحث عليه الإسلام بكل الوسائل، ويوجد التكافل الواجب والتكافل التطوعى، ويوجد التزام الدولة بسد جوعة كل جائع، وقد مر بنا كيف وصل المجتمع الإسلامى أيام عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه، الذى يعتبره كثير من المؤرخين خامس الخلفاء الراشدين.

لكن تعال نقف وقفات مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ذات دلالة عميقة فيما نحن بصدده.

كان من ديدن عمر رضى الله عنه أن يعس فى الليل، يتفقد أحوال الرعية، فمر على خباء، فسمع صبية يتضاغون ووجد امرأة تضع قدرًا على النار، فسألها: ما بال الصبية يتضاغون؟ قالت: من الجوع. فسألها: وماذا فى القدر؟ قالت حصيات أوقد عليها النار أشاغل بها الصبية حتى يناموا. وأضافت: وعمر لا يحس بنا! فقال لها: وما يدرى عمر بك؟ قالت: وفيم إذًا ولِىَ أمر المسلمين؟! فبكى عمر حتى اخضلت لحيته، وذهب لتوه إلى بيت المال فاَحتمل دقيقًا وسمنًا وعاد إلى ذلك الخباء، فقال له خازن بيت المال: دعنى أحمل عنك! فقال عمر: ومن يحمل عنى يوم القيامة؟! ووضع السمن والدقيق فى القدر، وظل ينفخ فى النار حتى نضج الطعام، فأطعم الصغار، ولم يبرح حتى ناموا.

وأوقف عمر حد السرقة عام الرمادة - عام الجوع - لا إبطالا لشىء أنزله الله كما يشيع بعض الكتاب ليساندوا من لا يحكم بما أنزل الله، ولكن إعمالا للشريعة فى مفهومها الواسع، فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول: ادرءوا الحدود بالشبهات،

وفى عام الرمادة - عام الجوع - كان الجوع شبهة تدرأ الحد، فلا ينزل العقاب على السارق الذى سرق ليسد جوعته أو جوعة أهل بيته.

وسرق غلمان لحاطب بن أبى بلتعة ناقة لرجل مزنى، فأتى بهم إلى عمر ليقيم عليهم الحد. فقال عمر رضى الله عنه لحاطب: والله لولا أنى أعلم أنكم تستعملونهم فتجيعونهم حتى إن أحدهم لو أكل ما حرم الله عليه لحل له.. لولا ذلك لقطعت أيديهم. فإذ لم أفعل فلأغرمنك غرامة توجعك! والتفت إلى المزنى فقال: بكم أريدت منك ناقتك؟ قال: بأربعمائة. فقال لحاطب: اذهب فأعطه ثمانمائة!

أى عدالة أروع من هذه العدالة؟! وأى فكر أرفع من هذا الفكر؟! وأى آفاق أرحب من هذه الآفاق؟!

* * *

أما جريمة الزنا فالمنهج الربانى يسد الباب أمامها - بعد تعميق الإيمان بالله واليوم الآخر، وتربية التقوى فى القلوب، وتربية الخشية من غضب الله - بإجراء عملى، لا يجعل للزانى حجة فى ارتكاب الجريمة، فيحث على الزواج المبكر، وعلى التيسير فى الزواج: يقول رب العالمين: ﴿ **وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ** ﴾ (النور: ٣٢، ٣٣).

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» (رواه البخارى).

ولا يكتفى المنهج الربانى بهذا الإجراء الذى يفتح الباب لإرواء الدافع الغريزى إرواء نظيفًا طاهرًا مباركًا مثمرًا بقدر ما يوصد الباب الآخر، باب الشيطان، بل يعمل فى الوقت ذاته على منع المثيرات التى تلهب الغريزة وتفتح الباب للوقوع فى الخطيئة، فيمنع الاختلاط ويمنع التبرج ويمنع دخول البيوت إلا بإذن، ويلزم الصغير إذا بلغ الحلم بالاستئذان قبل الدخول على المحارم.

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النور: ٢٧).

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور: ٣٠، ٣١).

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (النور: ٥٨، ٥٩).

وبهذه الوسائل كلها يكون الدافع الجنسى منضبطًا بالضوابط التى تمنعه أن ينقلب سعارا لا يشبع، كما تفعل الجاهليات كلها، قديمها وحديثها، وبخاصة هذه الجاهلية المعاصرة التى فتحت الباب على مصراعيه فى هذا الجانب بالذات ليدخل منه أعوان الشيطان. والله يقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ (النور: ١٩).

* * *

الدافع الأكبر إلى الخمر والمخدرات كما أشرنا فيما سبق هو محاولة الهروب من واقع سيئ محيط بالإنسان إلى عالم متخيل خال من المنغصات.

وفى الأرض ـ دار الابتلاء ـ لا تخلو الحياة قط من المنغصات . . ولكن تختلف إزاءها مواقف البشر ! فصاحب الإرادة القوية لا تقعده العقبات عن بذل الجهد لبلوغ ما يهدف إليه ، ولا يثنيه الفشل فى محاولة عن القيام بمحاولة أخرى . أما الشخص الضعيف الإرادة فالهروب من المشكلة أيسر عليه من معاناتها والعمل على التغلب عليها .

ومن جهة أخرى فهناك عبيد الشهوات ، الذين يخيل إليهم أن الخمر ـ أو المخدرات ـ تزيدهم استمتاعا بما يسعون إلى الاستمتاع به من المنكرات .

والإسلام لا يحب هذا الشخص أو ذاك ، فكلاهما صاحب شخصية غير سوية ، لا يصلح لعظائم الأمور ، بل لا يتجه إليها أصلا ، وينفق جزءاً من طاقته التى وهبه الله إياها فيما لا يعود عليه ولا على مجتمعه بخير أو فائدة . فضلا عما يؤدى إليه الأمر من الإدمان ، وإهدار المال فى غير محله ، وارتكاب الجرائم ، والخمر أم الكبائر كما قال عليه الصلاة والسلام .

وللإسلام منهج متكامل إزاء هذا كله .

فعقد الصلة بالله ، وتعميق الإيمان باليوم الآخر ، وزرع الخشية من الله فى القلب هى الأداة التربوية الكبرى التى يتجه إليها الإسلام لتنظيف القلب البشرى من دوافع الجريمة .

وإلى جانب ذلك يعمل الإسلام على تقوية الإرادة بحث المؤمن على الجهاد : **﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾** (الحج : ٧٨) .

والجهاد هو قمة بذل الجهد ، فإذا اتجه إليه الإنسان لم تعد تسقط همته عند ملاقاة العقبات ، فضلا عن كون المعانى العليا التى يتجه إليها الإنسان ترفعه عن

السفاسف، وعن الالتفات إلى المتاع الهابط، وترتقى به إلى آفاق تستوعب طاقته على المستوى اللائق بالإنسان الراشد:

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ (آل عمران: ١٤ ـ ١٧). وكلها أمور تستوعب الطاقة وتملأ النفس فلا يتبقى فيها فراغ يحتاج إلى ملء بالملهيات، أو رغبة فى الهروب إلى عالم من صنع الخيال.

ويسعى الإسلام فى الوقت ذاته إلى جعل الحياة فى الأرض ـ رغم ما قد يكون فيها من المشقة ـ مليئة بالأمل: الأمل فى وجه الله: ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ (التغابن: من آية ١١) والأمل فى الآخرة، حيث جنة الله ورضوانه، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ويشغل القلب البشرى بذكر الله: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (الرعد: ٢٨).

وفى مثل هذا الجو لا يهرب الإنسان من الواقع، ولا يلجأ إلى مخدر يغيب وعيه، بل يعيش بوعيه كله فى عالم الواقع، مرتبطا قلبه بالله، ساعيا إلى رضاه.

* * *

عرضنا فيما سبق نماذج من الجرائم الأكثر شيوعا فى المجتمع، وبينا منهج الإسلام فى التعامل معها بما يوضح ـ فيما أحسب ـ أن وجهة الإسلام الأولى ليست إنزال العقاب ولكن هى وقاية المجتمع من الجريمة[1].

---

(١) راجع كتاب «التشريع الجنائى فى الإسلام» للأستاذ عبدالقادر عودة رحمه الله.

ولكن الله يعلم - وهو العليم الخبير - أنه يوجد فى البشر من لا تقنعه أو تنفع معه كل الإجراءات التى تهدف إلى منع الجريمة من أن تقع فى الأرض، بدءا بأحد ابنى آدم الذى قتل أخاه ظلما وعدوا إلى أن تقوم الساعة: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (المائدة: ٢٧-٣٠).

لأمثال هذا، الذى لا تفلح كل الوسائل لتغيير إرادة الشر عنده، نزلت العقوبات التى جاءت فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، شديدة وحادة: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣٨).

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (النور: ٢).

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المائدة ٣٣، ٣٤).

لا يحل دم امرئ مسلم يشهد ألا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا فى إحدى ثلاث: النفس بالنفس والثيب الزانى والمارق من الدين التارك للجماعة (رواه البخارى).

وهؤلاء - وأمثالهم - غير معذورين فى ارتكاب جرائمهم (وإلا فالشبهة تدرأ الحد

كما مر بنا من قبل) وهم بإزاء ما أنزل الله من عقوبات حادة عنيفة - مقصود فيها الشدة - أحد اثنين: إما أن ترده قسوة العقوبة التى تنتظره فيرجع عن ارتكاب جريمته، وهنا تكون قسوة العقوبة ربحا للمجتمع، لأنها حمته من جريمة كانت قمينة أن تقع لو كان العقاب غير رادع، وإما أن تكون نزعة الشر فى نفسه أقوى من أن تردعه قسوة العقوبة، وحينئذ يكون إنزال العقاب به لازما لحماية المجتمع من انتشار العدوى - عدوى الإجرام - وفى الحالين تنحسر الجريمة فى أضيق نطاق ممكن.

وقد مر بنا فى الفصل السابق أن المجتمع الإسلامى - على الرغم من كل ما وقع فيه من انحراف - ظل قرونا عدة أقل المجتمعات البشرية جرائم، وأقلها شرب خمر، وأقلها وقوعا فى الفاحشة، وكان ذلك بفضل تطبيق المنهج الربانى.. حتى إذا ابتعد الناس أو أبعدوا عن منهج الله ﴿ **ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ** ﴾ (الروم: ٤١).

هذا هو الإســــلام!

هذا هو الإسلام كما أنزله الله، وكما طبق فى واقع الأرض ذات يوم، نتحدى به كل النظم التى عرفتها البشرية فى تاريخها الطويل.

ونعلم جيدا أن الإسلام - بصورته تلك - غير موجود فى الأرض اليوم. بل نعلم جيدا أنه - بصورته المثالية - لم يعش إلا فترة محدودة فى صدر الإسلام. ولكن هنا تلتبس على الناس مجموعة من الحقائق التاريخية تحتاج إلى توضيح.

إن مثالية تلك الفترة لم تنشأ من أن الجيل الأول طبق الإسلام كاملا فى واقع الأرض، فهذا مطلوب من كل أجيال الأمة بلا استثناء، سواء قامت به بالفعل أم قصرت عنه. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (النساء: ٦٤).

إنما كانت مثالية الفترة الأولى ناشئة من أن المسلمين يومئذ لم يكتفوا بأداء ما هو مفروض عليهم، وإنما تطوعوا - طمعا فى رضوان الله - بأن يحاولوا تنفيذ المندوبات والمستحبات كأنها فروض مفروضة، فارتفعوا بذلك إلى تلك الآفاق التى لم تتكرر فى التاريخ.

ونضرب أمثلة توضح هذه الحقيقة.

التكافل فى المجتمع المسلم فريضة. ولكن ما قام به ذلك المسلم العظيم، الذى جاءه ضيف، وهو لا يملك إلا تمرات يتغذى بها، فوضعها أمام ضيفه، واتفق مع امرأته أن يتظاهرا أمام الضيف أنهما يأكلان معه، بينما تمتد يداهما فارغتين فى الفضاء، ليوفرا الطعام كله للضيف. هذا تطوع نبيل لم يفرضه الله فرضا على

أحد. لذلك أنزل الله فيه قرآنا يتلى إلى يوم القيامة: ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر: ٩).

وحق الفقراء فى أموال الزكاة ثابت: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ (٢٤) لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (المعارج: ٢٤، ٢٥) ولكن ذلك الرجل الفقير الذى قال لامرأته إن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفقر، فهلا سألناه أن يعطينا، فقالت له: تريد أن تشكو الله إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! فصبر، وصبرت معه امرأته.. هذان لم يكونا يتصرفان فى حدود ما أوجب الله عليهما، وإنما كانا يتطوعان تطوعًا نبيلا فيرتفعان إلى ذلك الأفق السامق ابتغاء مرضاة الله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (البقرة: ٢٠٧).

وتلمس الدعاء من رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أثناء حياته خلق إسلامى لا شك فيه. ولكن المرأة التى كانت تصرع فتتكشف فى أثناء نوبتها، وطلبت من رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو لها بالشفاء من صرعها، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن شئت دعوت لك، وإن شئت صبرت ولك الجنة. فقالت: أصبر يا رسول الله، ولكن ادع لى ألا أتكشف، فدعا لها فلم تعد تتكشف.. هذه المرأة العظيمة لم تكن تعيش فى مستوى ما فرض الله عليها، بل اختارت أن ترتفع إلى آفاق عليا، ابتغاء مرضاة الله، فصبرت على مرضها ابتغاء الجنة، واستصغرت متاع الأرض كله لتنال الآخرة.

مئات من هذه النماذج - بل ألوف - احتشدت فى تلك الفترة المثالية فمنحتها مثاليتها الفريدة فى التاريخ.

ولكنا لا نأخذ أحدا بتلك النماذج - وهى حقيقة تاريخية واقعة - لأنها تطوع نبيل بأعمال لم يفرضها الله، وإن كان قد حبب إليها. ولا يحاسب الله أحدا من خلقه لأنه لم يرتفع إلى تلك الآفاق، إنما يضاعف الأجر لمن يستطيع الوصول إلى تلك

الدرجة الرفيعة، ويثيب المسلم «العادى» على إسلامه إذا التزم بما فرضه الله عليه، فيدخله الجنة، ينعم فيها بما وعد الله.

هذا الإسلام «العادى» إن صح التعبير، هو الذى تحاسب عليه الأمة، فتثاب إن قامت به، وتعاقب إن هبطت عنه..

وهذا الإسلام «العادى» استمر عدة قرون فى واقع الأرض، رغم ما وقع من المسلمين من انحراف فى بعض الجوانب، وهو الذى نرجو أن تعود إليه الأمة، ليعود لها التمكين والتأمين والاستخلاف كما وعد الله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (النور: ٥٥).

والذى نتأسى به فى ذلك الجيل الفريد ليس هو ما تطوعوا به فوق الفريضة، وإن كان الواقع أنه لم يخل جيل من أجيال المسلمين من أفراد يرتفعون إلى ذلك المستوى السامق، ولكن نتأسى بما التزموا فيه بما فرض الله، لأنه فرض على كل الأجيال، وليس على الجيل الأول وحده، وهو هو الذى ندعو إليه، ونتحدى به كل نظام عرفته البشرية فى تاريخها الطويل، سواء من ناحية العدل السياسى، أو العدل الاقتصادى، أو العدل الاجتماعى، أو فيما بين الجنسين، أو فيما يتعلق بالجريمة والعقاب، لأن هذه كلها فروض فرضها الله فى دينه المنزل، وأمر بتطبيقها فى واقع الأرض.

* * *

ونعود لبيان الأسباب التى أدت إلى انحراف الأمة عن الجادة، وانحسار الإسلام فى نفوس المسلمين من شموله لكل جوانب الحياة إلى الصورة التى وصل إليها اليوم فى معظم بلاد الإسلام، نعود إليها لا لنبرر الواقع السيئ الذى وصلت الأمة إليه، ولكن لنفسر هذا الواقع، والتفسير غير التبرير. فلا شىء يبرر للأمة انحرافها عن الطريق الذى رسمه لها الله، ومكنها فى واقع الأرض حين التزمت به، وهى

مسئولة أمام الله عن كل خطأ وقعت فيه: ﴿بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ (القيامة: ١٤، ١٥).

وقع أول تراجع للأمة عن التكاليف التى كلفها الله بها حين تراجعت عن الرقابة على أعمال الحاكم، كما كانت تفعل أيام الخلافة الراشدة.

ويقال كلام كثير عن الفتنة التى وقعت أيام عثمان رضى الله عنه، وما تلاها من أحداث شغلت الأمة عن بعض واجباتها، واستدعت اللجوء إلى ألوان من الشدة فى الفترة الأولى للدولة الأموية، مما لا نتعرض له هنا، ولكن نقول إن حركة التصحيح التى قام بها عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه، كانت قمينة أن تعيد الأمة إلى وضعها الطبيعى الذى هيأها الله له، وأن تعود إلى ممارسة الإسلام كاملا كما كانت تفعل أيام الخلافة الراشدة، ولكن ذلك لم يحدث بما فيه الكفاية، فبدأ طغيان سياسى استمر مع الأمة طويلا إلا فترات متقطعة، حين يتولى أمر المسلمين رجل صالح من ذات نفسه، لا لأن الأمة ألزمته بالصلاح: (وإن كان الأمر فى عمومه ليس بالسوء الذى يصوره المستشرقون فى كتبهم لأمر فى نفوسهم، هو تنفير المسلمين من تاريخهم، ليتخلوا عن الإسلام!).

ثم توالت الانحرافات..

برز الفكر الإرجائى الذى يخرج العمل من مسمى الإيمان، ويقول إن الإيمان هو التصديق، أو هو التصديق والإقرار، وليس العمل داخلا فى مسمى الإيمان، ويقول: من قال لا إله إلا الله فهو مؤمن ولو لم يعمل عملا واحدا من أعمال الإسلام!

وبرز الفكر الصوفى الذى يركز على الجانب التعبدى (شعائر التعبد) وينزوى فى الزوايا، ، ويهمل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويقول: دع الخلق للخالق! لو شاء الله لهداهم[1]!

---

(١) لا يشمل هذا الوصف كل الفرق الصوفية بطبيعة الحال، فقد كان هناك من الصوفية من قام بالجهاد فى سبيل الله، ومن قام بنشر العلم، ومن قام بالتربية الإيمانية الصحيحة، ومن قام بنشر الدعوة، وهؤلاء ليسوا «صوفية» بالمعنى الغالب على تلك الفرق، إنما هم زهاد لبسوا لباس الصوفية!

وبرز الترف المهلك فى قصور الأغنياء وذوى السلطان، مع ما يصاحبه - بالضرورة - من وجود فقراء فى المجتمع لا ينبغى أن يكونوا فقراء.

ورويدًا رويدًا أهملت الجوانب الاجتماعية فى هذا الدين وصار كأنه شأن فردى، يقوم به كل فرد بمفرده، وضعف بذلك الرباط الأقوى الذى يربط الأمة بعضها ببعض، والذى هو عصب هذا الدين، ومنبع قوته فى السراء والضراء.

وأهمل التعليم، وأهمل الضرب فى مناكب الأرض، وحل التواكل محل التوكل الصحيح مع اتخاذ الأسباب.. فعمّ الجهل والمرض والتخلف فى كل اتجاه.

وغنى عن البيان أن هذا كله لم يحدث دفعة واحدة، فنحن هنا تختصر مسيرة ما يقرب من عشرة قرون، فى بضعة سطور!

وعلى الرغم من تلك الانحرافات كلها ظل المجتمع الإسلامى محافظًا على كثير من أخلاقياته، وظل - عدة قرون - يقف فى انحداره عند حاجزين عظيمين: الصلاة، وتحكيم شريعة الله. فالمسلم - فى نظر المجتمع - لا بد أن يصلى، والمسلم - بداهة - يتحاكم إلى شريعة الله.. إلى أن جاء الأعداء فهدموا ما بقى عند الناس من الإسلام، أو حاولوا هدمه على أقل تقدير!

❋ ❋ ❋

هنا يجىء دور العوامل الخارجية.

حين رأى الأعداء الحال التى آلت إليها الأمة فى مختلف مجالاتها، رأوا أن الفرصة قد سنحت للقضاء الأخير على الإسلام، فتكالبوا عليها من كل حدب وصوب، وتحقق النذير الذى أنذر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته قبل أربعة عشر قرنا: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها. قالوا: أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة من صدور أعدائكم، وليقذفن فى قلوبكم الوهن. قالوا وما الوهن يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت» (رواه أحمد وأبو داود).

لم يكن يتوقع من الأعداء - حين يرون الأمة تغفو، وتتخاذل عن تكاليف دينها، وتقع فيما وقعت فيه من ضعف وعجز - أن يربّتوا على ضعفها، ويعينوها على النهوض!

ولكن يجب أن نعرف قبل ذلك: لماذا هم أعداء؟ وأعداء ماذا على وجه التحديد؟

إنهم أعداء الإسلام.. وهم أعداؤه لأنه الإسلام! وهم أعداء المسلمين.. لأنهم مسلمون!

﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ (البقرة: ١٢٠).

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ (البقرة: ٢١٧).

والذين يظنون - بسذاجة - أن الحرب المشبوبة اليوم على الإسلام فى كل الأرض سببها أحداث ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١، عليهم أن يراجعوا التاريخ. فحين غدر فرديناند بالمسلمين فى الأندلس بعد أن أمّنهم، وقتل منهم عشرات الألوف فى القرن الخامس عشر الميلادى لم تكن أحداث ١١ سبتمبر قد وقعت بعد! وحين سقطت أخر دويلة إسلامية فى الأندلس - دويلة غرناطة - سنة ١٤٩٢م، وقسم البابا أرض المسلمين - التى سماها أرض الكفار - بين إسبانيا والبرتغال[1]، وقال لهم لا تكتفوا بطردهم من الأندلس بل تابعوهم فى الخارج لتقضوا عليهم، لم تكن أحداث ١١ سبتمبر قد وقعت بعد. وحين استجاب فاسكودا جاما لنداء البابا فخرج يتعرف على بلاد المسلمين، حتى وصل إلى جزر الهند الشرقية - بمعاونة البحار المسلم ابن ماجد(!) - فقال: الآن طوقنا رقبة الإسلام، ولم يبق إلا جذب الحبل فيختنق ويموت، لم تكن أحداث ١١ سبتمبر قد وقعت بعد. وحين قام ماجلان برحلته إلى شرق آسيا ليضم بلاد الفلبين المسلمة إلى الصليب كما قال للبابا ليأذن له بالقيام برحلته، لم تكن أحداث ١١ سبتمبر قد وقعت بعد، إنما كانت الدولة

(١) البرتغال Portugal هى أرض البرتقال الإسلامية.. هكذا سماها المسلمون بسبب مزارع البرتقال التى تشتهر بها.

الإسلامية فى الأندلس تقوم بدور حضارى هائل، لتخرج الناس فى أوربا من ظلمات قرونهم الوسطى إلى النور!

وحين استولى أللنبى الإنجليزى على القدس عام ١٩١٧ فقال: الآن انتهت الحروب الصليبية[١]. وحين وقف الجنرال غورو الفرنسى على قبر صلاح الدين سنة ١٩٢٠م فقال: ها قد عدنا يا صلاح الدين! نحن أبناء الصليبيين، ومن أعجبه حكمنا فليبق، ومن لم يعجبه حكمنا فليغادر البلاد، لم تكن أحداث ١١ سبتمبر قد وقعت بعد!

على أننا لسنا معنيين هنا بتتبع الهجمة الصليبية على الإسلام، سواء كانت غزوا عسكريًا أو سياسيًا أو اقتصاديًا أو فكريًا، إنما نحن هنا معنيون بأمرين: بيان حقيقة الإسلام كما أنزله الله، وكما طبق فى واقع الأرض فى صدر الإسلام، وبيان حركة الأمة بهذا الدين صعودًا وهبوطًا خلال التاريخ.

* * *

الإسلام كما أنزله الله ليس موجودًا فى الأرض اليوم، لا لأنه غير قابل للتطبيق، فقد طبق فى واقع الأرض سواء على المستوى المثالى الذى كان أيام الخلافة الراشدة، أو على المستوى العادى الذى استمر عدة قرون، وأنشأ حضارة متميزة فريدة فى التاريخ، جذورها لا إله إلا الله، وفروعها كل مناشط الحياة.. ولا لأن الزمن قد تجاوزه، فلا يمكن لشىء أن يتجاوز المنهج الربانى الذى أنزله ليحكم الحياة منذ بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، بعد أن أكمل الله الدين وأتم النعمة، وبعد أن ختمت الرسالة برسول الله صلى الله عليه وسلم:

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (المائدة: من الآية ٣).

---

(١) ما كانت قد انتهت، ولكن العبارة تنم عن الحقد الصليبى الذى يقود حركة «أللنبى»!

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (الأحزاب: ٤٠).

ولكن للأسباب التى بينّاها فيما سبق، سواء منها ما طرأ على الأمة من انحراف، أو ما فعله الأعداء فى محاولتهم القضاء على هذا الدين، والتى يلخصها حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام فى أبلغ عبارة: «يوشك أن تداعى عليكم الأمم» هذه هى المؤامرة من جانب الأعداء، «ولكنكم غثاء كغثاء السيل» هذا هو حال الأمة من الداخل. الأمران موجودان معًا وفى وقت واحد، لا نحتاج أن ننفى أحدهما لنثبت الآخر. لا نحتاج أن ننفى المؤامرة لنثبت سوء أحوال الأمة كما يفعل العلمانيون، ولا نحتاج أن نركز على المؤامرة ونهمش سوء أحوال الأمة كما يفعل بعض الكتاب الإسلاميين، إنما نذكرهما معًا، ونركز عليهما معًا، لأنهما معًا يشكلان واقعنا المعاصر.

* * *

أيًا كان الأمر فهذا هو الحاضر، وليس هو المستقبل!

المستقبل للإسلام.

أولا: لأنه وعد الله الذى لا يخلف: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (الفتح: ٢٨) ﴿ وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: ٦).

وثانيًا: بسبب ما يشتمل عليه هذا الدين من عناصر الصلاح التى أودعها إياه العليم الخبير، الذى خلق الإنسان ويعلم ما توسوس به نفسه، وما يصلحه وما يصلح له، سواء فى مجال العدل السياسى، أو العدل الاقتصادى، أو العدل الاجتماعى، أو فيما بين الجنسين، أو فيما يتعلق بالجريمة والعقاب، وهى مبادئ حين تطبقها البشرية تكون فى أحسن حالاتها، وحين تتجافى عنها يصيبها الخبل والاضطراب.

وثالثًا: لأن الأمة قد بدأت تستيقظ بالفعل، وتعود إلى الإسلام، وقد قلنا أكثر من مرة فى أكثر من كتاب إن عودة الأمة إلى نبضها الطبيعى الذى عاشت به عدة

قرون أمر لا يستغرب ولا يحتاج إلى تفسير من خارجه، إنما كان الذى يحتاج إلى تفسير هو أن تدير هذه الأمة ظهرها لهذا الدين الذى عاشت به عدة قرون، واستمتعت بنعمته عدة قرون، ومكنها الله به فى الأرض عدة قرون.

وصحيح أن الصحوة ما تزال فى مبادئها، وأنها قد تستغرق زمنًا حتى تشمل من نطاق الأمة ما يكفى للنهوض. ولكن الظاهرة موجودة بوضوح، تشغل بال الأرض كلها، سواء الأصدقاء والأعداء. الأصدقاء يتمنون للصحوة مزيدًا من النمو، ومزيدًا من الرشد، والأعداء يحاولون إطفاء الجذوة والقضاء عليها.

ورابعًا: بسبب ما يرتكبه الأعداء من الحماقات.

إن الحماقة الكبرى التى يقوم بها الأعداء فى المرحلة الراهنة، والتى تدل على نقص مزر عندهم فى الوعى التاريخى، هى الضغط على تيار صاعد على أمل القضاء عليه!

تجربة التاريخ - التى يغفل عنها الأعداء بسبب ما فى قلوبهم من حقد على الإسلام - أن الضغط على تيار صاعد على أمل القضاء عليه، ينتهى دائمًا بتنامى التيار الصاعد، وهزيمة الذين يضغطون عليه، وخروجهم من التاريخ[1]!

ومن آثار الحماقة التى يقوم بها الأعداء اليوم أن صار عند المسلمين مزيد من الوعى بأن الذى يحارب اليوم فى الأرض هو الإسلام - تحت ستار الحرب على الإرهاب - وكان من النتائج التى ترتبت على هذه الحرب زوال الغشاوة عن عيون كثير من الناس الذين كانوا مخدوعين بالحضارة الغربية، وعودتهم إلى الإسلام، كما كان من نتائجها زيادة عدد الداخلين فى الإسلام فى كل بقاع الأرض!

* * *

---

(١) قد يبدو للوهلة الأولى أن القضاء على الشيوعية كان استثناء من هذه القاعدة، فقد كانت الشيوعية فى يوم من الأيام تيارًا صاعدًا، ومع ذلك استطاع الغرب أن يقضى عليها دون أن يفقد وجوده. والحقيقة أن التفسخ فى مبادئ الشيوعية والتراجع عنها قد بدأ من داخلها على يد خروشوف ثم على يد بريجينيف صاحب حركة «الإصلاح» التى تسمى «البريسترويكا» وأخيرًا على يد يلتسن الذى انتهت الشيوعية فى عهده.

المستقبل للإسلام.

ولكن هذا يلقى على المسلمين - وعلى الصحوة بصفة خاصة - مسئولية ضخمة.

إن الأمة التى تستشعر الهزيمة فى داخل نفسها، تقعدها الهزيمة ذاتها عن بذل الجهد للنهوض.

وحين وقعت هزيمة المسلمين فى أحد، بسبب عصيانهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، كان التوجيه الربانى: ﴿ **وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ (آل عمران: ١٣٩) وكان هذا التوجيه هو البلسم الشافى من آثار الهزيمة، فتحركت النفوس بالفعل، وكان النصر من عند الله بعد الهزيمة: ﴿ **الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ** ﴾ (آل عمران: ١٧٢ - ١٧٤).

لا بد أن يخرج حس الهزيمة من القلوب، لكى تتحرك النفوس للعمل.

ومن واجب الدعاة أن يركزوا على هذه النقطة: أن الهزيمة أمام العدو - لأى سبب من الأسباب - لا تعنى أن العدو أعلى من المؤمنين. إنما المؤمنون - بإيمانهم - هم الأعلون. ولكن عليهم - لكى يستعلوا بالإيمان - أن يعلموا أولاً حقيقة الدين الذى هم مؤمنون به، ثم يعيشوه واقعًا، ويؤدوا تكاليفه. وإلا فالإيمان بغير علم بحقيقة الدين لا يغير شيئًا من الواقع، والإيمان بغير تطبيق واقعى، وأداء للتكاليف، أمانىُّ ذاهبة فى الفضاء: ﴿ **لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا** ﴾ (النساء: ١٢٣). ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ** ﴾ (الصف: ٢، ٣).

وذلك هو السبيل لإزالة الغربة الثانية التى وقعت للإسلام. إنه ذات السبيل الذى

أزيلت به الغربة الأولى: إيمان واع بحقيقة الدين، والتزام بأوامره وتوجيهاته، وأداء لتكاليفه، ثم يجيء النصر من عند الله، ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ (الأنفال: من آية ١٠)

على الدعاة أن يؤكدوا للناس أن الإسلام هو النظام الأمثل، لأنه من عند الله. وأن الالتزام به من مقتضيات لا إله إلا الله، وأن الإسلام هو المستقبل[١].

ولن يكون الطريق أمام الدعاة مفروشًا بالزهور! بل هى رحلة شاقة فى طريق تقف على جانبيه وحوش هائجة، تريد أن تلتهم كل من يمر فى الطريق.

لقد كانت الجاهلية الأولى جاهلية ساذجة، تعبد أصناما حسية، وتقاليد ما أنزل الله بها من سلطان، ومع ذلك قاومت الهدى الربانى مقاومة حادة عنيفة، حتى كتب الله النصر لدينه فى نهاية المطاف.

والجاهلية المعاصرة أعتى جاهلية عرفها التاريخ، لأنها تستند إلى قدر من «العلوم» لم تصل إليه البشرية من قبل: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم: ٧) وتستند إلى فلسفات ومذاهب وأفكار يختلط فيها الخطأ والصواب، والضار والنافع، ولكنها ليست خطأ محضا كما كان الحال مع الجاهلية الأولى. لذلك فالمتوقع أن تكون المعركة معها أشق وأطول مدى.. إلا أن يشاء الله.

وعلى الدعاة ألا يستمعوا لأراجيف الذين يقولون لهم - ليصرفوهم عن طريقهم - إن الإصلاح المنشود طريقه الديمقراطية وليس الإسلام، لأن الديمقراطية تملك حلولا جاهزة للمشاكل المعاصرة، أما الإسلام فيحتاج - لكى يواكب الحياة اليوم - إلى اجتهادات متعددة فى كل جوانب الحياة.

إن الديمقراطية - على فرض أنها كلها خير، وليس الأمر كذلك - ليست جهازًا

---

(١) يلفت النظر فى تقرير مؤسسة راند لعام ٢٠٠٧ - وهى التى ترسم لأمريكا سياستها تجاه الإسلام - اعتبارها أن الذين يؤمنون بأن الإسلام هو النظام الأمثل هم الأعداء الذين يجب على أمريكا أن تحاربهم وتقضى عليهم!!

يشترى أو يستورد، ويوصل بتيار الكهرباء، فيفرز من ذات نفسه حقوقًا للناس وضمانات! إنما يحتاج الأمر إلى تربية الناس حتى يستمسكوا بحقوقهم، ولا يسمحوا لأحد أن يعتدى عليها، ويجدّوا فى تحصيل الضمانات اللازمة لحياتهم، ولا يسمحوا لأحد أن يعبث بها، فهل تربيتهم على هذا الأمر مسألة هينة، تقوم بها خطبة أو مقالة أو محاضرة أو كتاب؟ أم هو جهد يبذل، وتضحيات تقدم، وعمل شاق دائب، حتى يصل الناس إلى المستوى المطلوب؟

إن الطغاة من أصحاب السلطان فى أى مكان فى الأرض لن يتنازلوا عن سلطانهم طواعية، ويقولوا لشعوبهم: تعالوا خذوا حقوقكم وضماناتكم، وحاسبونا على الصغيرة والكبيرة، فإن أحسنّا فأعينونا، وإن أسأنا فقومونا، كما قال الخلفاء الراشدون، سادة البشرية بعد الرسل صلوات الله عليهم ذات مرة فى التاريخ، حين آمنوا بالله ورسوله، وطبقوا الإسلام كما أنزله الله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا** ﴾ (النساء: ٥٨).

فإذا كانت التربية، والجهد الشاق، والنَّفَس الطويل فى العمل، مطلوبة لكلا الطريقين: الإسلام والديمقراطية فأى الطريقين يسلك المؤمن بالله ورسوله؟ الطريق الذى يرفض تحكيم شريعة الله، فيبوء بغضب الله فى الدنيا والآخرة، أم الطريق الذى يرضى الله عنه، فيباركه فى الدنيا ويثيب أصحابه فى الآخرة: ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ** ﴾ (الأعراف: ٩٦). ﴿ **تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾ (النساء: ١٣).

إن الذى أنزله الله وأمر باتباعه هو الإسلام وليس الديمقراطية، والذى يحاسبنا عليه الله فى الآخرة هو الإسلام وليس الديمقراطية، فهل فى الأمر خيار للمؤمنين؟ ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ (الأحزاب: ٣٦).

وليضع الدعاة فى حسابهم أن الطريق الشاق الذى عليهم أن يسلكوه لمواجهة الجاهلية المعاصرة هو طريقهم إلى الجنة :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (العنكبوت : ٦٩) .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾ (آل عمران : ١٤٢) .

وليضعوا فى حسابهم كذلك أن الجهد الذى يبذلونه لن تكون ثمرته ـ بحول الله ـ إنقاذ العالم الإسلامى وحده مما تردت فيه الأمة الإسلامية من ذل وهوان وتخلف وضعف ، وإنما هم بعملهم هذا يقدمون للبشرية كلها طريق الخلاص مما تردت فيه من ضلال وفساد ، فقد أرسل الله رسوله الخاتم عليه الصلاة والسلام للبشرية كافة ، ليخرجها من الظلمات إلى النور :

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (الأعراف : ١٥٨) .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) .

وليحذروا أخيراً قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ (محمد : ٣٨) .



- دراسات فى النفس الإنسانية
- التطور والثبات فى حياة البشرية
- منهج التربية الإسلامية
- منهج الفن الإسلامى
- جاهلية القرن العشرين
- الإنسان بين المادية والإسلام
- دراسات قرآنية
- هل نحن مسلمون؟
- شبهات حول الإسلام
- فى النفس والمجتمع
- حول التأصيل الإسلامى للعلوم الاجتماعية
- قبسات من الرسول
- معركة التقاليد
- مذاهب فكرية معاصرة
- مغالطات
- دروس تربوية من القرآن الكريم
- هذا هو الإسلام
- مفاهيم ينبغى أن تصحح
- كيف نكتب التاريخ الإسلامى
- لا إله إلا الله عقيدة وشريعة
- دروس من محنة البوسنة والهرسك
- العلمانيون والإسلام
- هلم نخرج من ظلمات التيه
- واقعنا المعاصر
- قضية التنوير فى العالم الإسلامى
- كيف ندعو الناس؟
- المسلمون والعولمة
- ركائز الإيمان
- لا يأتون بمثله
- من قضايا الفكر الإسلامى المعاصر
- حول التفسير الإسلامى للتاريخ
- مكانة التربية فى العمل الإسلامى



دار الشروق
www.shorouk.com